محكم

أبو القاسم حاج حمد
وتجديد المنهج في الدرس القرآني المعاصر

محمد طاهر
باحث مغربي

قسم الدراسات الدينية

جميع الحقوق محفوظة
مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات و الأبحاث
All rights reserved
Mominoun Without Borders

مقدمة:

يلاحظ المتتبع للحراك الثقافي العربي الإسلامي أن حقل الدراسات القرآنية شكل أحد أبرز الحقول المعرفية في الفترة المعاصرة، مما يؤشر على الأهمية الكبرى التي لازال يضطلع بها القرآن الكريم في البناء والتجديد الحضاري والثقافي الإسلامي.

ويأتي الاهتمام **بالقضايا المنهجية** المتعلقة بالنص القرآني على رأس قائمة الاهتمامات المتداولة اليوم على أيدي المفكرين والعلماء والباحثين؛ كمسألة فهم النص، ومنهجيات قراءته، وآليات التعاطي معه. وذلك لما تشكله هذه المسائل من دائرة تقاطع تتجاذبها رؤى ومنهجيات مختلفة.

في هذا الإطار، برزت مجموعة من **الدراسات القرآنية المعاصرة**[1] شرعت **في إعادة النظر في منهج التعامل مع القرآن الكريم**[2]، وعملت على **بناء منهج يستمد قواعده ومقولاته** من **القرآن الكريم ذاته**، أو من **داخل المجال التداولي الإسلامي**، باستثمار مقاصد النص ومساحة الاجتهاد الواسعة فيه[3]؛ من خلال تجديد أدوات وآليات قراءته وتأويله، أو عملت على استعارة أدوات تعاملها مع النص من **خارج المجال التداولي الإسلامي** مستفيدة مما وصلت إليه العلوم المعاصرة، سواء في تفسير النصوص أو في فهم الواقع.

ولا شك بأن هذه الدراسات **محكومة بأطر مرجعية متعددة**، ومتأثرة بخلفيات وحمولات معرفية مختلفة، كما أنها تختلف في رؤيتها المنهجية وطبيعة تقييمها للواقع، نتيجة تعدد مشاربها الفكرية، كما أنها تتقاطع في الكثير من المنطلقات وتلتقي أحيانا في الكثير من النتائج المعرفية، وبإمكاننا أن ننعتها بأنها من أهم ما أفضى إليه تطور الفكر العربي الإسلامي المعاصر.

ومما أسهم في جعل إعادة النظر في منهج التعامل مع القرآن الكريم مطلبا ضروريا بالنسبة للباحثين والدارسين، حالة «الإخفاق والانسداد التي ولجتها البلاد العربية منذ مطلع العقد السابع من القرن العشرين، بعد

---

[1]- أعني **بالدراسات القرآنية المعاصرة** تلك المحاولات التجديدية التي عرفتها العقود الأربعة الأخيرة من القرن العشرين إلى يومنا هذا، والتي رامت بناء مقولات منهجية جديدة وتطبيقها في فهم القرآن الكريم، محاولة تجاوز نمط الدراسات القديمة-المعتمدة على أصول الفقه وعلوم القرآن-؛ سواء انطلقت من مجال التداول الإسلامي باستثمار مقاصد النص ومساحة الاجتهاد الواسعة فيه؛ من خلال تجديد أدوات وآليات قراءته وتأويله، أو استعارت مفاهيمها ومقولاتها المنهجية من خارج مجال التداول الإسلامي مستفيدة مما وصلت إليه العلوم المعاصرة سواء في تفسير النصوص أو في فهم الواقع.

[2]- ينظر على سبيل المثال: "كيف نتعامل مع القرآن؟" لمحمد الغزالي؛ وكيف نتعامل مع القرآن العظيم؟ ليوسف القرضاوي؛ و"العالمية الإسلامية الثانية" و"منهجية القرآن المعرفية" لمحمد أبو القاسم حاج حمد؛ و"نحو منهجية معرفية قرآنية" لطه جابر العلواني؛ و"الكتاب والقرآن قراءة معاصرة" لمحمد شحرور؛ و"مفهوم النص دراسة في علوم القرآن" لنصر حامد أبو زيد؛ و"القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني" لمحمد أركون... وغيرها من الدراسات.

[3]- وذلك بغية التأسيس **لقراءة معرفية مقاصدية قوامها** "التفقه في المقصود القرآني توسلا بمناهج العلوم الشرعية والإنسانية والكونية مع ملاحظة قانون التجديد والتغيير والتطور في الواقع الإنساني الذي يتطلب مراجعة تلك المناهج ومدى فاعليتها في استخلاص المصالح الحقيقية لا الموهومة": العضراوي (عبد الرحمن)، النسق التأويلي والمقاصدي في نظرية الاستنطاق القرآني، ندوة مناهج الاستمداد من الوحي، الرابطة المحمدية للعلماء، 5-6 مارس 2008م، ط8، 2008م، دار أبي رقراق، ص 388

أن تعرض مشروع النهضة والتقدم فيها إلى انتكاسة فادحة»[4]، وكذا خطورة التحديات والإشكالات التي تواجه الفكر الإنساني عموما - والفكر الإسلامي بوجه خاص -.

فالأزمة عالمية لا ذاتية فقط، والمخرج منها يتطلب حلا على ذات المستوى من العالمية والشمولية والاستيعاب، ولا أقدر على هذا الطرح من القرآن الكريم. لكن السؤال الذي يفرض ذاته بقوة هو: "كيف يمكن طرح القرآن الكريم على مستوى الحضارة العالمية الراهنة؟ وضمن أفقها؟ ليستطيع أن يقود المسلم أولا إلى خارج التخلف، ثم يقود معه العالم إلى حيث البديل؟".[5]

إنه الإشكال الذي تحاول بعض الدراسات القرآنية المعاصرة معالجته ومقاربته عن طريق دراستها للقرآن الكريم بمناهج جديدة تهدف إلى إرجاع القرآن الكريم إلى مساره الصحيح الذي ارتضاه الله له في علاقته بالإنسان والفكر الإنساني.[6]

في هذا الإطار، تندرج دراسات المفكر السوداني **"محمد أبو القاسم حاج حمد"**[7]؛ الذي حاول تجديد المنهج في التعامل مع القرآن الكريم باعتباره خطابا **عالميا** له كامل القدرة (بكرمه ومجده وهيمنته) على إنقاذ البشرية من منزلقاتها المعرفية «فهو للناس كافة ويتسع لمطلق الزمان والمكان، جاء حاملا للصيرورة الكونية كلها و**معادلا بالوعي** للوجود الكوني وحركته».[8] وباعتباره **مصدرا للمعرفة والفكر والمنهج**.

هكذا، اتخذت هذا الورقة من إشكال - **منهج التعامل مع القرآن الكريم** - موضوعا لها، ضمن مجال الدراسات القرآنية المعاصرة، ومن خلال أنموذج "محمد أبو القاسم حاج حمد"؛ الذي يمثل بحق أنموذجا مهما للطفرة التجديدية التي عرفها حقل الدراسات القرآنية المعاصرة.

من هذا المنطلق، فالتركيبة التي اقترحتها عنوانا لهذا المؤتمر، تنهض على ثلاثة مكونات أساسية:

أ- إشكالية المنهج باعتبارها موضوعا.

ب- الدراسات القرآنية المعاصرة باعتبارها مجالا.

---

[4]- بلقزيز (عبد الإله)، **أسئلة الفكر العربي المعاصر**، ط1، 2001م، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، ص 86

[5]- حاج حمد (محمد أبو القاسم)، **العالمية الإسلامية الثانية جدلية الغيب والإنسان والطبيعة**، ط2، 1996م، م1، دار ابن حزم، لبنان، ص 376

[6]- "فلا بد أن نعيد القرآن مرة ثانية من القبور والمآتم إلى الحياة وتفاعلاتها، وأن نقرأه على مسامع الأحياء لا الموتى، وأن نسحبه من على الرفوف ونفتحه أمام عيون الطلاب والدارسين بمختلف نوعيات دراستهم ومستوياتهم": شريعتي (علي)، الحج الفريضة الخامسة، ترجمة عباس أمير زادة، ط1، 2003م، دار الأمير للثقافة والعلوم، لبنان، ص 56

[7]- "محمد أبو القاسم حاج حمد" مفكر إسلامي من مواليد السودان بتاريخ 28-11-1942م، من أسرة تنتمي إلى الطريقة الختمية، وكانت له اطلاعات واسعة وجولات عديدة مع اليسار السوداني، حاضر في العديد من **الندوات** والمؤتمرات، قدم طرحا جديدا في منهج التعامل مع القرآن الكريم؛ قوامه عالمية الخطاب القرآني، ومنهجية القرآن المعرفية، وضبط دلالات اللغة، والوحدة البنائية والعضوية للقرآن المجيد، والهيمنة والتصديق... من مؤلفاته "العالمية الإسلامية الثانية جدلية الغيب والإنسان والطبيعة" و"منهجية القرآن المعرفية أسلمة فلسفة العلوم الطبيعية والإنسانية"، توفي رحمه الله سنة 2004م.

[8]- **إبستمولوجية المعرفة الكونية**، (م.س)، ص ص 210-211

ج- مشروع محمد أبو القاسم حاج حمد باعتباره أنموذجا.

ومن خلال النقاط الأساسية الآتية:

1- مدخل مفهومي: القراءة-المعاصرة-المنهج

2- القراءات المعاصرة: الخصائص والإشكالات المنهجية والمعرفية

3- محمد أبو القاسم حاج حمد وتجديد المنهج في التعامل مع القرآن الكريم

1- مدخل مفهومي: القراءة-المعاصرة-المنهج

تعد **المصطلحات** و**المفاهيم** أدوات للتواصل والتوصيل، وانفتاح النصوص والأعمال الفكرية على التلقي، كما تشكل أساسا مهما من أساسات التفكير السديد؛ فنحن نفكر بواسطة المفاهيم، ونتداول مختلف أنواع الخطاب من خلالها. لذا فكلما كانت سديدة أنتجنا فكرا وخطابا أرشد.

هكذا فوضوح أُطُر المفاهيم، ورسم حدود الدلالة للمصطلحات يسهم بقوة في صياغة النقاشات حول القضايا الحقيقية، ويجنِّبها تضييع الطاقة والجهد في نقاشات هامشية نتيجةً لِغموض المفاهيم أو إبهام دلالة المصطلحات.

وفي سياق ذلك، فإن أول ما يستوقفنا في الصيغة الاصطلاحية المقترحة عنوانا لهذه الورقة هو تحديد المفاهيم التي نقترحها لوحداتها المكونة لها وللعلاقات الرابطة فيما بينها:

القراءة:

أسس القرآن الكريم لمفهوم **القراءة** انطلاقا من مفتتح خطابه في قوله تعالى: **(اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم)**[9] "ففعل القراءة وإن كان أمرا يخاطب الرسول الأكرم (ص) وقت النزول؛ فهو أمر متجدد للناس كافة على مدى العصور... إذن فالامتثال لأمر القراءة شرط ضروري لتدشين العالمية الإسلامية الثانية (على حد تعبير محمد أبي القاسم حاج محمد)، كما كان امتثال الرسول صلى الله عليه وسلم لأمر القراءة مقدمة لتدشين عالمية الإسلام الأولى، أو الفعل الحداثي الإسلامي الأول على حد تعبير (د. طه عبد الرحمان)، ولكن الامتثال يدعو إلى التفكر في كيفية القراءة وشروطها...

إن السؤال عن كيفية قراءة النص الديني عموما- والقرآن الكريم على وجه الخصوص- سؤال انتهض من جديد أمام العقل المسلم، يحرضه على ذلك مجموعة من العوامل، منها ما هو متصل بطبيعة النص نفسه بما هو خطاب للعالمين في كل زمان ومكان، أو بما هو رسالة من مرسل هو الله عز وجل إلى مرسل إليه هو الإنسان المخاطب، وبما يحمل من دعوة للقراءة والتعقل والتدبر، ومنها ما هو متصل بالمستجدات والتحديات التي تفترض القراءة المتجددة للنص، باعتباره المرجعية المطلقة المستوعبة، ومنها ما هو متصل بما توصل إليه العقل الإنساني من معارف وعلوم جديدة وما شهده من تطور في حقول اللغويات والألسنيات والتأويل..."[10].

---

[9]- سورة العلق: الآيات1-4

[10]- شوربا (زينب إبراهيم)، قراءة النص القرآني وشروط التجديد، مجلة المنطلق، ع9، 2006م، مؤسسة الفلاح، بيروت، لبنان، ص ص 5-6

المعاصرة:

لا تعنى الورقة بشكل كبير كون المصطلح شكَّل مع مقابله الأصالة إحدى الثنائيات التقابلية التي شغلت الفكر العربي الحديث والمعاصر... وذلك انطلاقا من قناعة أن الثنائيات (الأثر والرأي/ النقل والعقل/ القديم والحديث...) مثلت إحدى أبرز تجليات أزمة العقل المسلم قديما وحديثا... مما يستدعي تجاوزها في اتجاه التكامل والتفاعل بدل الصراع والتقابل في أي منهاج بنائي تجديدي يروم الخروج بالأمة والإنسانية من أزمتها الراهنة.

وقد اختلفت المقاربات التي أفردت هذا المصطلح بالدراسة والبحث من حيث النظرة والتصور، باعتبار البعد(زمني أو رؤيوي) الذي تنظر من خلاله، وتنطلق منه. فمن جهة؛ **"فالمعاصرة بالمفهوم الزمني** تنسحب على فترة زمنية قد تطول أو تقصر حسب المنظور الذي يتبناه مستعمل المصطلح"[11]. ومن جهة ثانية؛ فإن **النظرة الرؤيوية** تعتبر مفهوم المعاصرة تحولا في التصور أو الرؤية الفكرية داخل العصر الحديث[12]، ومن ثم فقد عكست تحولا في النظرة ليس إلا.

وتنطلق دعوى **المعاصرة** في قراءة النصوص الدينية عموما- والنص القرآني بوجه خاص_ من اعتبارات متعددة أهمها:

+ **اعتبار الزمن**: فما كان معاصرا في عصره، يصبح غير ذلك في عصر آخر، ويستتبع ذلك أن ما نسميه معاصرا في الزمن الحالي لن يكتسب تلك الصفة مع توالي الزمن.[13]

+ كون **القراءة عمل بشري** يتصف بالنسبية والتغير، ومن ثم فتبلور رؤى جديدة يجعلها تستحق صفة المعاصرة أكثر من سابقاتها.

+ كون القراءة ناتجة عن **أسئلة وإشكالات** تواجه الإنسان في حياته، ومن ثم فالقارئ في توجهه نحو النص يقوم بطرح أسئلة تتلاءم ومستواه العلمي كما يفهم إجابات الشريعة بما يتناسب وطبيعة معارفه. وهكذا، فشكل

---

[11]- جسوس (عبد العزيز)، **إشكالية الخطاب العلمي في النقد الأدبي العربي المعاصر**، ط1، 2007م، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، ص12: فالأستاذ **عبد الله العروي** في "الإيديولوجية العربية المعاصرة" امتد بالمصطلح إلى أواخر القرن التاسع عشر، وهو بذلك يوازي بين(المعاصر والحديث) كما شاع في الكتابات النقدية العربية التي تضع (الحديث) مقابل (القديم). وبنفس المفهوم وظف **احميده النيفر** المصطلح في كتابه " الإنسان والقرآن وجها لوجه: التفاسير القرآنية المعاصرة- قراءة في المنهج-". بينما نجد كتابات متعددة - وإن لم تهتم بالتحديد النظري- تستخدم مصطلح (المعاصر) ليدل على **العقود المتأخرة من القرن العشرين**؛ مثل:"ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب" لمحمد بنيس، و"نقد النقد وتنظير النقد العربي المعاصر" لمحمد الدغمومي.

[12]- إشكالية الخطاب العلمي في النقد الأدبي العربي المعاصر،(م.س)، ص 12؛ (بتصرف)؛ وكذلك عددا من الدراسات القرآنية التي وسمت نفسها ب**"المعاصرة"** بمعنى أنها تقدم نظرة أو تصورا مغاير لما هو سائد في الموضوع المعالج؛ مثل: شحرور (محمد)، الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، ط8، 2006م، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت.

[13]- **إشكالية الخطاب العلمي في النقد الأدبي العربي المعاصر**، (م.س)، ص 13

وطبيعة كل قراءة تنبثق من نوع الأسئلة والإشكالات المطروحة وكذا من طبيعة الوعي السائد في كل عصر. كما أن تحقق فعل القراءة بصفة المعاصرة يرجع إلى كون فعليتها تقتضي الحركة والتجدد الدائمين.

وخلاصة القول؛ فالقراءة الدائمة والمتجددة للقرآن الكريم على وجه الخصوص، والمتحققة بمفهوم المعاصرة_ بمعنييها الزمني والرؤيوي_ تقوم على مجموعة عوامل ذاتية وموضوعية.[14]

المنهج:

يتم التمييز في هذا الصدد بين نوعين من المنهج (المنهج العام) و(المنهج العلمي)؛ يفيد الأول "الطريق الواضح الذي يفضي إلى غاية مقصودة، فيكون المنهج طريقا محددا لتنظيم النشاط من أجل تحقيق الهدف المنشود"[15]، في حين يدل الثاني على "طريقة تنظيم عملية اكتساب المعرفة العلمية، إنه المبادئ التنظيمية الكاملة في الممارسات الفعلية للعلماء الذين انخرطوا بنجاح في إنتاج المعرفة والإضافة إلى نسق العلم".[16]

ولكن المنهج بمفهومه العام أو العلمي لا يشتغل (بذاته) وحول (ذاته)، بل يتوقف اشتغاله على عنصرين جوهريين تنعدم مع غيابهما أو أحدهما أي جدوى منه، وهما:

+ الذات: التي تُشَغِّل المنهج وتشتغل به.

+ الموضوع: الذي يشتغل عليه المنهج.

وبذلك نستطيع القول بأن المنهج: "رؤية منظمة وهادفة تضبط علاقات الذات بالموضوع"[17]، ولعل إيلاء الأهمية للذات وللموضوع في المنهج هي التي أدت بأحد الباحثين النقاد إلى تعريف المنهج بأنه "الحاجز المعرفي بين الذات والموضوع".[18]

وهكذا فاعتبار المنهج يمثل(رؤية وخطة وحاجزا معرفيا) بين الباحث والموضوع، يجعله مرتبطا ارتباطا حميميا بمستعمله الذي يمده بالطاقة والحيوية أو يسحبهما عنه، حيث يوجهه وفق الخلفيات التي ينطلق منها،

---

[14]- سبق ذكرها: "منها ما هو متصل **بطبيعة النص** نفسه بما هو خطاب للعالمين في كل زمان ومكان، أو بما هو رسالة من مُرْسِل هو الله عز وجل إلى مُرْسَل إليه هو الإنسان المخاطب، وبما يحمل من **دعوة للقراءة** والتعقل والتدبر، ومنها ما هو متصل **بالمستجدات والتحديات** التي تفترض القراءة المتجددة للنص، باعتباره المرجعية المطلقة المستوعبة، ومنها ما هو متصل بما **توصل إليه العقل الإنساني** من معارف وعلوم جديدة وما شهده من تطور في حقول اللغويات والألسنيات والتأويل..".

[15]- الخولي (يمنى طريف)، فلسفة العلم في القرن العشرين، عدد 264، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ص 134

[16]- نفسه، والصفحة؛ وكذلك: عقيل (حسين عقيل)، **فلسفة مناهج البحث العلمي**، ط1، 1995م، مكتبة مدبولي، ص 50

[17]- **إشكالية الخطاب العلمي في النقد الأدبي العربي المعاصر**، (م.س)، ص 166

[18]- الغذامي (عبد الله محمد))، **تشريح النص**، ط1، 1987م، دار الطليعة، بيروت، ص 72

وتبعا للأهداف التي يسعى إلى تحقيقها؛ فالمنهج يستبطن (نظرية) قد تحوله من مجرد (منهج) إلى **(نظرية فلسفية)**.[19]

وفي سياق موضوع بحثنا، يبرز **إشكال المنهج** _ بوصفه حلقة ضمن جدليات العلاقة التفاعلية بين الدين وتطورات الواقع العلمي والمعرفي_ ليعبر عن "موجة من أنماط وصنوف التفكير، ومسببات التأثير ضمن نمطية معينة لما يصح عليه تسمية تفسير أو تأويل النص الديني".[20]

إن إيرادنا لهذه التعاريف الاصطلاحية هي على سبيل الاستئناس النظري، وإلا فغايتنا ليس إيراد أو استقصاء تعاريف للمنهج تبعا للتخصصات العلمية المختلفة، وإنما سنركز في سياق بحثنا للعلاقة بين المنهج والنص القرآني على المستويين الآتيين:

أولا: المنهج هو منطق التفكير؛ وهنا يكون التركيز على القواعد المعتمدة في منطلقات البحث، وضوابطه التي ينبغي أن تحكم سيره وخطواته"[21]، وبالتالي فطالما "أن العلوم تتمايز بموضوعاتها، فهي تختلف كذلك بمناهجها...إذ لكل علم منهاجه الخاص، تفرضه طبيعة موضوعه".[22]

ثانيا: المنهج هو "ضابط كلي للعمل المنهجي الذي يصدر عنه الباحث وتتفرع فيه وعنه المناهج؛ **المنهجية العامة المؤطرة والمستوعبة** لكل الأبعاد العملية والنظرية... أي **الإطار المرجعي المنهجي الكبير**، الذي ينبغي الرد إليه والرجوع إليه من أجل الفهم الشامل والمستوعب أيضا... فلا تختلف وحدة المنهجية عن وحدة المرجعية في شيء، بل هي امتداد لها وتعبير عنها ووسائلُ لمعرفتها وتنزيلها..."[23]

وهكذا "فالمنهجية التي نعنيها هي خروج العقل من حالة التوليد الذاتي للمفاهيم، إلى اكتشاف **النسق المرجعي** الذي يحاكم هذه المفاهيم نفسها ويؤطر لإنتاجها؛ حيث يحكم التطبيقات في مختلف الحقول الأخرى؛ فالمنهج-إذن- هو خلاصة قوانين تحولت إلى نظريات، تحولت بدورها إلى إطار مرجعي، وليست مجرد صياغة موضوعية للتفكير".[24]

---

[19]- **إشكالية الخطاب العلمي في النقد الأدبي العربي المعاصر**، (م.س)، ص 166

[20]- جرادي (شفيق)، **مقاربات منهجية في فلسفة الدين**، ط1، 2004م، معهد المعارف الحكمية، بيروت ص 9

[21]- نفسه، ص 14

[22]- الجابري (محمد عابد)، **مدخل إلى فلسفة العلوم**، ط3، 1994م، مركز دراسات الوحدة العربية، ص 23

[23]- شبار (سعيد)، **الاجتهاد والتجديد في الفكر الإسلامي المعاصر دراسة في الأسس المرجعية والمنهجية**، ط1، 2007م، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا، ص 14

[24]- حاج حمد (أبو القاسم)، **منهجية القرآن المعرفية أسلمة فلسفة العلوم الطبيعية والإنسانية**، ط2، 1429هـ/2008م، دار الهادي، ص 35

إن المنهج بهذين المستويين - وخاصة المستوى الثاني - لَيُعَدُّ "في حد ذاته إشكالا منهجيا؛ أي مدى إمكانية المنهجية الإسلامية التي تستمد من الوحي الإلهي، وهو غيبي، لتصبح منهجا مقروءا قابلا لأدنى شروط المنهجية في الاستدلال العقلي وأعلاها في الاستقراء".[25] بمعنى آخر كيف لهذا الإطار المرجعي المنهجي المستند في بنائه النظري والتطبيقي على الوحي القرآني أن يستوعب ويتجاوز في ذات الآن الأطر المرجعية والبناءات المنهجية المختلفة للعلوم - خاصة الطبيعية والإنسانية - التي انبثقت وتشكلت خارج سياق الوحي؟

2- القراءات المعاصرة: الخصائص والإشكالات المنهجية والمعرفية

في إطار معالجتنا للإشكالية التي نحن بصدد مناولتها - **إشكالية المنهج في الدراسات القرآنية المعاصرة** - تستوقفنا الملاحظات الأولية الآتية:

1- إن سؤال المنهج شكل ولازال العنوان الأبرز والأهم في الفكر العربي والإسلامي المعاصر، باعتباره مشكلة أمتنا الأولى[26]، بل مشكلة الإنسانية كلها. وتبرز أهميته بالخصوص في **مقاربة النص القرآني**، وذلك انطلاقا من قناعة أن جوهر الأزمة نشأ بسبب الخلل الذي أصاب **منهجية تعاملنا مع القرآن المجيد**.[27]

وهكذا، فلا سبيل إلى الخروج من هذه الأزمات دون **تجديد النظر في القرآن الكريم بوعي منهجي ومعرفي** يتيح للأمة استعادة عافيتها الحضارية، في أفق التجديد والبناء الحضاري المأمول. من هذا المنطلق "فتصحيح المنهجية **ضرورة معرفية وحضارية**، تتطلب بالضرورة وضعها في **إطار شامل**، حتى تستوعب كل الإشكالات المطروحة على الساحة الإسلامية والعالمية وتقدم الحلول لذلك.[28]

2- إن سعي الفكر العربي الإسلامي المعاصر لإعادة قراءة القرآن الكريم وتأويله، قد طرح مشاكل منهاجية مترابطة عديدة – موروثة أو وافدة – لا يمكن حلها منفردة، مما يستوجب نظرة شمولية لمقاربتها، تُرَتِّبُ الإشكالات المطروحة، وتسعى للبحث عن العلاقات التي تنتظمها في أفق تأسيس تصور متكامل ومنسجم حولها. أو بصيغة أخرى، فإن سعي الفكر العربي الإسلامي المعاصر لإعادة قراءة القرآن الكريم، يطرح مشاكل عديدة حول مفهوم القراءة ذاته، ومنطلقاتها

---

[25]- حاج حمد (أبو القاسم)، إسلامية المعرفة المفاهيم والقضايا الكونية، ع14، شتاء 2004م، مجلة الحياة الطيبة، السنة الرابعة، ص 71

[26]- البوشيخي (الشاهد)، **مصطلحات النقد العربي لدى الشعراء الجاهليين والإسلاميين: قضايا ونماذج ونصوص**، ط1، 2009، عالم الكتب الحديث، الأردن، ص 32

[27]- تجلت عبر مجموعة من **الإشكالات المعرفية والمنهجية** التي تراكمت عبر أجيال الأمة في تعاملها مع القرآن الكريم- وبخاصة في العلوم التي اصطلح عليها تاريخيا بـ "علوم القرآن"، والتفسير واحد منها-.

[28]- حمدوشي (الحسن)، إسلامية المعرفة دراسة تحليلية نقدية، موسم2004/2003 ج2، رسالة دكتوراه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهراز، فاس، ص 348

ومناهجها وتطبيقاتها، فضلا عن كون هذه المشكلات لا يمكن مقاربتها – مجزأة – إلا على سبيل التمييز والتوضيح، لأنها في نهاية الأمر تطرح مسألة واحدة متعددة الأبعاد.

3- إن الخطاب العربي الإسلامي في مسألة قراءة النصوص الدينية عموما – والنص القرآني بوجه خاص – لازال في طور التوتر والنزوع، ويسعى إلى الاستقرار على تصورات دقيقة وراسخة، وهذا يفترض منا أثناء مناولة هذه الإشكالية تحليلا وتمحيصا عميقين للرؤى والتصورات بعيدا عن الأحكام الجاهزة، بغية الوصول إلى أفكار جديدة في الموضوع، وتأسيس نظرية أكثرَ علميةً وشمولية.

تهدف هذه الورقة -إذن- في جانب منها الكشف عن أهم الخصائص والإشكالات المنهجية والمعرفية -الموروثة والوافدة- التي طالت هذه العودة إلى القرآن الكريم في المرحلة **المعاصرة**، والتي تمت **بمناهج وآليات** تستدعي الوقوف عندها لتطوير بعض جوانبها الإيجابية والبناء عليها، وتجاوز بعض ما اعتورها من سلبيات ومحاولة تقويم ما يكون قد حصل لها وبها من انحراف.

وفي كل ذلك، سوف نروم الإيجاز والإشارة إلى ما نعتقده أسهم بشكل أو بآخر في إبعاد النص القرآني عن المواكبة والتأطير المعرفي والحضاري المتجدد للأمة والإنسانية.

وهكذا، فقد تميز حقل الدراسات القرآنية المعاصرة بمجموعة من **الخصائص**، يمكن إجمالها فيما يلي:

1- "وفرة الإنتاج التفسيري للنص القرآني أو المعتمد عليه لمعالجة بعض القضايا النظرية أو المسائل الاجتماعية.[29]

2- المزامنة بين ارتفاع الإنتاج في الدرس القرآني ومرور الأمة من أزمات اجتماعية أو مؤسساتية حادة.. هذه الخصوصية تجعل اشتداد الاهتمام بالقرآن الكريم تفسيرا ودراسة مرتبطا بما يعتري المجتمعات العربية والمسلمة من اهتزازات وتساؤلات كبرى.[30]

---

[29]- ففي أواخر الستينيات؛ وبعد النكسة العربية اتجهت الجمهرة الكثيرة من المثقفين العرب إلى إعادة قراءة النص الديني عموما- والقرآن الكريم خاصة- مما شكل ما يشبه الظاهرة، وهو ما دفع جورج طرابيشي إلى تسمية تلك الظاهرة بـ (العصاب الجماعي)، هذه الظاهرة تتكون من عدة تيارات استمرت إلى يومنا هذا؛ منها ما كانت قراءته على ضفاف النص الديني، ولم تتعامل مع النص الديني مباشرة، ومنها تيارات أخرى كان مجال قراءتها النصوص الدينية نفسها وهي على قسمين:1- ما كانت قراءته ضمن منهج التداول الإسلامي اعتمادا على (التأويل)، 2- ما كانت مشاريعهم تستمد آلياتها من =خارج نطاق التداول الإسلامي للاجتهاد؛ فهي تعتمد على مناهج حديثة في قراءتها للنص؛ من تأويلية هيرمينوطيقية وتفكيكية وتاريخانية وسيميائية وتحليل- نفسية وسوسيولوجية ولسانية...

[30]- «خاصة عقب الفشل الذريع الذي طال مشاريع التنمية والتحديث وانتكاس النهضة، وحالة الإخفاق والانسداد التي ولجتها البلاد العربية منذ مطلع العقد السابع من القرن العشرين»: بلقزيز (عبد الإله)، أسئلة الفكر العربي المعاصر، ط1، 2001م، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ص 86؛ كما ازدادت الحاجة« لإعادة النظر في مفهوم النص قراءة وتأويلا عقب أحداث 11 شتنبر 2001، إذ أصبح السؤال حول تفرد النص الإسلامي بإنتاج العنف والتطرف ومقاومته للاندماج في القيم الكونية للحضارة الحديثة»: ولد أباه (السيد)، عالم ما بعد 11سبتمبر 2001م: الإشكالات الفكرية والإستراتيجية، ط1، 2004م، الدار العربية للعلوم، بيروت، ص 104

3- انضمام نوع جديد من الدارسين للقرآن الكريم ليسوا من خريجي "المعاهد الشرعية"، وبالتالي تدعمت هذه الدراسات بدخول اهتمامات معرفية حديثة؛ كاللسانيات وعلوم التربية والطب والهندسة وغيرها من التخصصات المعرفية".[31]

وبغض النظر عن مضامين ونتائج هذه الدراسات، ومن خلال الخصائص التي ذكرنا التي ميزت مجال الدراسات القرآنية المعاصرة، تتأكد **المكانة المرجعية** والمحورية التي لازال يضطلع بها القرآن الكريم في منظومة الثقافة العربية والإسلامية، ومن ثم لم يكن عبثا هذا التنامي والتطور، فهو تسليم ضمني **للقرآن الكريم بمركزيته** وضرورته في التغيير والبناء الحضاري، باعتباره نصا مؤسسا، ولما يتمتع به النص من طاقة خلاقة في تشكيل الواقع والمستقبل.

كما نستشف من خلال تلك الملاحظات حدوث **تحول منهجي** في التعاطي مع القرآن الكريم - قراءة وتأويلا - لدى المعاصرين؛ أسهم فيه ولوج غير المتخصصين في "الفكر الديني" - بالمعنى التقليدي - وهم من المشتغلين بالإنسانيات والاختصاصات العلمية المختلفة، إلى حقل الدراسات القرآنية، يرومون في ذلك "النهوض بالواقع العربي والإسلامي لإنجاز -حداثة إسلامية جديدة-، تسهم في الخروج من واقع التأخر التاريخي، الذي يهيمن على مجمل الوقائع الاجتماعية والسياسية والثقافية".[32]

هكذا، فقد أدت هذه التحديات التي تواجه الأمة العربية والإسلامية إلى بروز "مقاربات متعددة تتعلق بالنص - قراءة وتأويلا - يمكن تصنيفها إلى ثلاث **مقاربات منهجية** أساسية، وهي:

أولا: الإصلاح من داخل المرجعية الإسلامية باستثمار مقاصد النص ومساحة الاجتهاد الواسعة فيه، من خلال تجديد أدوات وآليات قراءته وتأويله.

ثانيا: ضرورة معالجة النص الإسلامي داخل التقليد الكتابي الذي ينتمي إليه؛ أي التقليد اليهودي-المسيحي، مما يعني عمليا إخضاع هذا النص لمناهج النقد والتأويل التي طبقت على العهدين القديم والجديد، لغرضين مترابطين اثنين هما:

أ- من جهة تبيان تاريخيته، والكشف عن حدود مجاله المرجعي.

[31]- النيفر (احميده)، **الإنسان والقرآن وجها لوجه- التفاسير القرآنية المعاصرة- قراءة في المنهج**، ط1، 2000م، دار الفكر، دمشق، ص ص 7-8

[32]- جول (محمد زاهد)، النص والتأويل: استراتيجيات القراءة المحدثة، ع24، خريف 1429هـ/2008م، مجلة التسامح، مؤسسة عمان للصحافة، ص 198

ب- ومن جهة أخرى كسر قداسته، وتقويض بنيته الوثوقية، لفسح المجال أمام القيم الإنسانية التحديثية التي هي شرط الانتماء للعصر، والاندماج في المنظومة الكونية.

ثالثا: تطبيق مناهج العلوم الإنسانية المعاصرة، وفلسفات التأويل الحديثة على هذا النص، من حيث هو خطاب لغوي يستجيب فيما وراء طابعه المقدس الذي يقر به المؤمنون لآليات التفكيك والقراءة التي طبقت على مختلف النصوص، بما فيها النصوص ذات الطبيعة الميثية / الأسطورية_على حد تعبير محمد أركون".[33]

إننا نُثَمّنُ الجهود التي بذلها أصحاب المقاربة الإصلاحية،[34] وذلك لتأكيدها على ضرورة الانطلاق من أرضية الذات في أي عمل تغييري؛ فإصلاحنا وتحديثنا لا يكون إلاّ من داخلنا، وَوَفْق خصائصنا، والاتجاه في مرحلة تالية باتجاه العالم كله. ولمحاولتها **التأسيس لمنهاج قرآني توحيدي كوني إنساني تعارفي**؛ أساسه عالمية الرسالة، ووحدة الإنسانية، وانفتاح الأنساق الحضارية بدل الصراع والتقابل، وتكامل الخصوصيات الثقافية وتشاركها بدل الانغلاق والتحيز في كيانات حدية. وذلك لن يتم إلا **بالوعي المنهاجي** السليم القائم على التأسيس القرآني المستوعب. وهذا العمل التأسيسي البنائي لا يزال مفتوحا سواء من الناحية التنظيرية... أو من الناحية التطبيقية في مجال التخصصات العلمية المختلفة.

أما المقاربتان الأخريان،[35] فرغم جوانبهما الإيجابية - خاصة من الناحية النقدية لبعض المكونات التراثية، وهي في ذلك تستدعي الوقوف عندها لاستجلاء مدى جدارتها وعلميتها- فإنها تعاني قصورا في "استراتيجياتها

---

[33]- **عالم ما بعد 11سبتمبر 2001م: الإشكالات الفكرية والاستراتيجية**، (م.س)، ص ص 104-105

[34]- وخير من مثل هذا الاتجاه: محمد الغزالي، كيف نتعامل مع القرآن؟، (م.س)؛ ويوسف القرضاوي، كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟؛ وسعيد شبار، الاجتهاد والتجديد في الفكر الإسلامي المعاصر؛ وطه جابر العلواني، نحو منهجية معرفية قرآنية، ومحمد أبو القاسم حاج حمد، العالمية الإسلامية الثانية جدلية الغيب والإنسان.

[35]- **فالمقاربة الثانية** يمكن أن نمثل لها بعبد المجيد الشرفي(التونسي)، حيث يعتمد في قراءته للنص على نتائج منهج دراسة الأديان الذي أصبح علما مستقلا مستفيدا من مباحث السوسيولوجيا، والأنسنة، واللسانيات، والتاريخية الجديدة، إضافة إلى المنهج الظواهري-الفينومينولوجي-وعلم الدلالة، والتحليل النفسي؛ ينظر: الإسلام بين الرسالة والتاريخ، دار الطليعة، بيروت، ط1، 2001م؛ **والمقاربة الثالثة** نمثل لها بمحمد أركون الذي ينحو منحى القراءة التفكيكية للنص الديني والكشف عن(اللامفكر فيه) في ذلك النص-حسب تعبيره- مستعينا بمنهج الحفر الأركيولوجي، والقراءة السيميائية، والتاريخية للنص الديني؛ ينظر لـه: = تاريخية الفكر العربي الإسلامي، ترجمة هاشم صالح، المركز الثقافي العربي، ط3، 1998م؛ والفكر الإسلامي قراءة علمية، ترجمة هاشم صالح،المركز الثقافي العربي، ط2، 1996م؛ وقضايا في نقد العقل الديني كيف نفهم الإسلام اليوم، ترجمة هاشم صالح، دار الطليعة، بيروت، ط3، 2004م؛ وحسن حنفي، الذي طرح مشروعه الضخم (من العقيدة إلى الثورة) وهو محاولة لإعادة تفسير المقولات الكلامية عن (الله، والغيب، والدين) بتفسير جديد لِبَث روح عصرية تحمل روح الثورة والتغيير: من العقيدة إلى الثورة: موقفنا من التراث القديم، المركز الثقافي العربي، ط1، 1988م؛ وحامد نصر أبو زيد ومشروعه الفكري إعادة قراءة النص الديني قراءة تاريخية مستعينا بمنهج الهرمنيوطيقا (التأويلية)؛ ينظر له: إشكالية القراءة وآليات التأويل، المركز الثقافي العربي، ط8، 2008م، ص ص 13-49؛ ومفهوم النص دراسة في علوم القرآن، المركز الثقافي العربي، ط6، 2005م؛ والنص والسلطة والحقيقة إرادة المعرفة وإرادة الهيمنة، المركز الثقافي العربي، ط5، 2006م؛ والطيب تيزيني في مشروعه إعادة قراءة النص الديني من خلال الوضعية الاجتماعية المشخصة المرافقة لنزول النص وتاريخه، مستمدا من خلفيته الماركسية منهجا في قراءة المجتمعات من خلال الصراع الطبقي؛ ينظر له: مشروع رؤية جديدة للفكر العربي في العصر الوسيط، دار دمشق، ط5؛ 1971م، والنص القرآني أمام إشكالية البنية والقراءة، دار الينابيع، دمشق،1997م؛ ومحمد شحرور الذي اعتمد في قراءته للنص القرآني على المنهج التاريخي اللغوي في تفسير المفردات، القائم على دراسة الخصائص البنيوية للعربية كما تمثلت عند ابن جني في الخصائص والجرجاني في دلائل الإعجاز في ضوء المنهج الوصفي الوظيفي للسانيات الحديثة، وذلك بإعادة تفسير الكليات الدينية (الدين، الإسلام، الرسول، النبي) بتفسير لغوي جديد يحيل إلى معان جديدة، تم توليد معاني جديدة من هذه الكليات لتفسير فرعيات الدين؛ ينظر لـه: الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، شركة المطبوعات، بيروت، ط8، 2006م؛ وتجفيف منابع الإرهاب، مؤسسة الدراسات الفكرية المعاصرة، دار الأهالي، دمشق، ط1، 2008م.

الإصلاحية، وأدواتها وآلياتها المنتجة للخطاب"،[36] حيث قامت في جانب على "قراءة أصولها الدينية من خلال قراءة فكر آخر لأصوله الدينية، محاولة القفز على ما يعترض سبيلها من حواجز **تاريخية وموضوعية ومنهجية** كخصائص تميز هذا الفكر عن ذاك، وهذا النص عن الآخر"،[37] وفي جانب آخر "جعلت من الغرب نموذجا إرشاديا لأية عملية إصلاح عربي إسلامي وفق مفهوم **القطيعة** مع التراث والالتحاق بواقع الحداثة الغربي"،[38] وهو ما انتقده عليها د.طه عبد الرحمن من كونها **قراءات مقلدة** لا تتحقق بشروط الإبداع"، ذلك أننا نجد بين أيدينا قراءات للقرآن يَنسبها أصحابها إلى الحداثة؛ لكنها ليست تطبيقا مباشرا لروح الحداثة، وإنما تقليدا لتطبيق سابق، وهو التطبيق الغربي المتمثل في "واقع الحداثة"؛ ومعلوم أن هذا التطبيق الأخير أراد له أهله أن يبقى قاطعا صلته بأسباب الماضي وآثاره لما انطبع في ذاكرتهم من أشكال التخلف التي عانوها في القرون الوسطى، حتى إنهم أصبحوا يفرون من كل ماض ولو كان ماضيهم القريب فرارهم من موتهم، ورغم أن هذه الحال لا تنطبق على حال المسلمين، لأن هذه القرون كانت تشهد على تحضّرهم ولو أنهم انحدروا بعدها؛ فقد أبى بعض الدارسين إلا أن يَبْنُواْ على أن الأمة المسلمة ينبغي أن تحذو في علاقتها بتراثها وتاريخها حذو الغرب في علاقته بتراثه وتاريخه، فجاءوا بقراءات للقرآن تقطع صلتها بالتفاسير السابقة، طامعين في أن يفتحوا بها تفسيرا جديدا؛ ولَئِن سلّمنا بأن هذه القراءات تتضمن عناصر من الابتكار، فلا نُسَلّم بأن هذا الابتكار إبداع حقيقي، لأن من شأن الإبداع الحقيقي أن يكون موصولا، وهذا إبداع مفصول، إذ قطع صلته بتراثه، تقليدا للغير، لا اجتهادا من الذات.."[39].

_ وهكذا يمكن أن نجمل أهم الإشكالات المنهجية -موروثة أو وافدة- في التعامل مع القرآن الكريم في الدراسات القرآنية المعاصرة في:

1- **مشكلة القراءة المتعضية التجزيئية** التي تتعامل مع المفردات والآيات القرآنية بشكل تجزيئي- وتحكيم النظرة اللغوية[40] بالأساس باعتبارها نمط المعرفة السائد- وغياب القراءة الشمولية التي تتأسس على النظر إلى القرآن الكريم في **بنيته الكلية** ووحدته الموضوعية وهندسته المعرفية ومقاصديته الغائية؛ إذ أن "عدم إدراك بنائية الوحي ووحدته العضوية، ومواءمته للإنسان في تكامل مع الكون وتفسيره له على المستوى القصدي، قد

---

[36]- جول (محمد زاهد)، النص والتأويل: استراتيجيات القراءة المحدثة، ع24، 2008م، مجلة التسامح، مؤسسة عمان، ص 201

[37]- شبار (سعيد)، **النص الإسلامي في قراءات الفكر العربي المعاصر**، ط1، 1999م، منشورات الفرقان، ص 7

[38]- **النص والتأويل: استراتيجيات القراءة المحدثة**، (م.س)، ص 201

[39]- عبد الرحمن (طه)، روح الحداثة: المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية، ط1، 2006م، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ص ص 175-176؛ وينظر بتفصيل الفصل الرابع من هذا الكتاب: القراءة الحداثية للقرآن والإبداع الموصول، من الصفحة175 إلى 206؛ وكذلك: حمادة (منتصر)، الآيات القرآنية والقراءات الحداثية عند د.طه عبد الرحمن، العدد9، 2006م، مجلة المنطلق الجديد، ص ص 11-32

[40]- «إذ باتت كتب التفاسير، كتبا للنحو واللغة وعلوم العربية أكثر منها دراسات تصبو لفهم القرآن، فطغت بذلك الاستطرادات اللغوية مما أثقل كاهل التفسير وأخرجه عن مقصده، ومن أمثلة ذلك ما شهدته الألفاظ من توسع غريب بلغ حد المبالغة، متلبسة باصطلاحات حادثة في الملة بعد نزول القرآن بأجيال»: مسؤولية التأويل، مصطفى ناصف، دار السلام، ط1، 2004م، ص 143

كان-عبر تاريخ المسلمين- وراء الوقوع في أضرب من التعضية والتمزيع، تسببت في خلط منهاجي كانت له آثار غير إيجابية على مختلف المعارف المرتبطة بالوحي وعلى واقع الأمة".[41]

2- **مشكلة القراءة التاريخية** التي تقوم على "الربط الشديد بأسباب النزول[42] والمناسبات، ذلك الربط الذي لم يقف عند حدود الاستئناس في الفهم...مما أدى إلى ربط القرآن الكريم بإطار زماني ومكاني إنساني معين هو إطار زمن التنزيل؛ مما يتعارض مع العالمية الإسلامية وخاتمية النبوة وحاكمية الكتاب"[43]، ويسهم في انحصار الخصائص الدائمة والمتجددة للوحي الإلهي من كونه مهيمنا وكريما ومجيدا. إضافة إلى الإشكالات المتعلقة ببعض المباحث القرآنية كـ (الناسخ والمنسوخ _ نسخ خبر الواحد لظاهر النص القرآني_المكي والمدني..)؛ حيث ركزت على **تأريخ القرآن** أكثر من تثويره وآليات تدبره وفهمه وقراءته القراءة المتجددة الواعية التي تسمح بمواكبة تأطيرية للوحي الإلهي على مدى تعاقب الأزمان. واستمر هذا الإشكال ولا يزال في علاقتنا بالقرآن الكريم إلى يومنا هذا؛ "فلا ندْرُسُ ولا نُدَرِّسُ في جامعاتنا إلا علوما تاريخية... حتى إنه ليصح أن يقال إننا كائنات تاريخية تراثية ولسنا كائنات لها تاريخ وتراث تأخذ منه وتذر".[44]

3- **الإشكال الناتج عن التأثير المسيحي اليهودي**[45] في بعض المباحث القرآنية والتفسيرية -خاصة التراثية- منها؛ أو ما عرف بالإسرائيليات"، والتي أخذت حظا عظيما من حيث انتشارها، حتى بات أكثر المفسرين يرددون ما ذكرته الإسرائيليات ترديدا حرفيا، دون أدنى عمليات الغربلة القرآنية والعقلية"[46]، وما جرَّ ذلك من انحرافات تشريعية وعقيدية كان لها أبلغ الخطر والخطل في مسار الأمة التاريخي والفكري.

4- **إشكال العلاقة الرابطة بين المصادر المعرفية_ قرآنا وسنة**؛ حيث قامت العلاقة بين القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة تراثيا - حسب طه جابر العلواني - "انطلاقا من **نظرية الحكم الشرعي**، وما ترتب عليها من جعل العلاقة بينها هرمية اعتبرتهما مصدرين ينفصل كل منهما عن الآخر من ناحية ويشرك بينهما في

---

[41]- مناهج الاستمداد من الوحي، أحمد عبادي، مقدمة الندوة، الرابطة المحمدية للعلماء، دار أبي رقراق، ط1، 2008م، ص 6

[42]- يرى الطاهر بن عاشور في المقدمة الخامسة: في أسباب النزول« أن البحث في أسباب النزول كان دائرا بين القصد والإسراف، - ورغم عذره للمتقدمين ممن ألف في هذا الباب، فإنه لم يقبل العذر من أساطين المفسرين الذين تلقفوا الروايات الضعيفة وأثبتوها في كتبهم- حتى أوهمت الكثير من الناس أنه ما نزلت آية إلا لأجل حوادث تدعو إليها. ورغم توجس العلماء من الأمر وتعقيب الأصوليين على ذلك، بتقنينه بالقاعدة المعروفة:"العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب"، إلا أن ذلك لم يمنع من الوقوع في مغبة الإسراف والإفراط، يقول الواحدي، وهو يصف حال التأليف في هذا المجال:" أما اليوم فكل أحد يخترع للآية سببا، ويختلق إفكا وكذبا، ملقيا زمامه إلى الجهالة، غير مفكر في الوعيد" وقال أيضا" لا يحل القول في أسباب نزول الكتاب إلا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل»: التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت – لبنان، ط1، 1420هـ/2000م، ج.1، ص ص 44-49

[43]- **نحو منهجية معرفية قرآنية**، (م.س)، ص ص 282-283

[44]- **من أجل منهاج قرآني تجديدي في الفكر والعلوم الإسلامية**، (م.س)، ص 78

[45]- **نحن والقرآن: مقدمات في أصول التدبر دراسة منهجية نقدية في علم التفسير**، مصطفى بوهندي، ط1، 1423هـ/2002م، ص ص 11-52؛ وكذلك: التأثير المسيحي في تفسير القرآن دراسة تحليلية مقارنة، دار الطليعة، بيروت، ط1، 2004م، ص 129

[46]- **أبي آدم قصة الخليقة بين الأسطورة والحقيقة**، عبد الصبور شاهين، مطبعة الشباب، ط1، 1998م، ص 7؛ وللتوسع في الموضوع أكثر ينظر ما أورده د.عبد الصبور شاهين في كتابه هذا، حول مسألة وجود الخليقة البشرية وبداياته، ص 42 فما بعدها.

مباحث مشتركة كأنهما نص واحد من ناحية أخرى، في حين ينسخ كل منهما الآخر في جانب ثالث، وهو ما ينبه إلى مدى **الحاجة للمنهج الضابط**.

ففي دائرة بيان السنة النبوية للقرآن المجيد وإطار العلاقة الوثيقة بينهما، تبدو علاقة البيان بالمبين بأجلى صورها وأوضحها... تطبيقا عمليا للقرآن في مقاصده العليا الحاكمة، **تتكامل معه في وحدة بنائية** تقرأ وتفهم في ضوئها آلاف الأحاديث الصحيحة والأفعال والتصرفات النبوية الثابتة- التي أدخلتها القراءات الجزئية المعضاة ولا تزال في دوائر "مختلف الحديث" و"مشكل الآثار" ونحو ذلك، ولم تستطع قواعد الجرح والتعديل وموازين الأسانيد والمتون أن توقف ذلك الجدل الذي دار، ولا يزال بعضه دائرا حتى الآن، كما لم توقفه التأويلات على اختلافها عبر العصور.[47]

5- **مشكلة القراءة الأيديولوجية الوضعية** التي تجعل القرآن المجيد **نسبيا**؛ في غفلة عن طبيعته وخصائصه الكلية، ومحاصرتها إياه بمجموعة من الآليات والأدوات المنهاجية نفسها التي تطبق على النصوص البشرية بأبعادها النفسية والأنثربولوجية والسياسية واللسانية والسيميائية والدلالية اللغوية،[48] وسياقاتها التي تتبلور فيها، مما لا يتواءم مع حقيقة النص القرآني المُنزل.

6- **مشكلة القراءة الحداثية**، التي رفعت شعارات الحداثة والتحرر والعقلانية والتاريخانية[49] والموضوعية والعلمية في قراءتها للقرآن الكريم؛ أدت إلى الطعن في **قدسية** القرآن الكريم وإطلاقيته وتصديقه وهيمنته على ما عداه من الكتب السابقة،[50] حيث غلب على معظم هذه القراءات **الإسقاط** المعرفي والمنهجي بدل التزام العلمية والموضوعية في الفهم المتعقل القادر على المناقشة والتحليل الحيادي الذي يروم إيجاد الحلول للإشكالات العالقة بدل الاستمرار في النقد الهدام والابتعاد عن التأسيس لأي عمل بنائي منشود.

---

[47]- **تحولات الفكر الإسلامي المعاصر**، (م.س)، ص 238

[48]- هذه الآليات في نظر تلك القراءات «تحرر المرء من أسر النصوص الدينية وهيبتها الضخمة التي تضغط عليه ما إن يبتدئ بقراءتها، فلا يستطيع أن يقيم مسافة بينه وبينها لتحليلها موضوعيا..إن التحليل السيميائي يساعدنا على إقامة هذه المسافة، ويجعلنا نراها كما هي عليه؛ أي في حقيقتها المادية والنصية واللغوية »: أركون(محمد)، الفكر الإسلامي قراءة علمية، ترجمة هاشم صالح، ط2، 1996م، المركز الثقافي العربي، ص ص 32-33

[49]- النص الإسلامي في قراءات الفكر العربي المعاصر، (م.س)، ص ص 21-30؛ يفيد المنهج التاريخاني «أننا لا نستطيع الحكم على الأفكار أو الحوادث أو المفاهيم والمعتقدات والأديان ونظم الجماعات، إلا بنسبتها للوسط التاريخي الذي ظهرت فيه؛ إذ أن هذه النسبة الحتمية هي الضامن للمعالجة والرؤية الموضوعية لخصائصها وتركيبها ومظهرها.. وقد جاء كرد فعل على التفسير اللاهوتي أثناء حركة عصر التنوير، وكواحد من أنماط النقد على سلطة التفسير الديني» مقاربات منهجية في فلسفة الدين، (م.س)، ص 22؛ ولا يخفى ما لتطبيق مثل هذا المنهج في دراسة القرآن الكريم (الدين الإسلامي) من إشكاليات تتعلق بتحكيم النسبي البشري والتاريخي في محاكمة المطلق والمتعالي عن الزمان والمكان.

[50]- «حيث تعاملت هذه القراءات مع الأديان كمعطى تاريخي متعاقب، فما يصدق على الواحد من دراسة ونقد، يصدق على الآخر، بل وأكثر من هذا نلمس تحيزا واضحا من أجل إبطال قداسة ووثوقية النص الإسلامي التي تميزه عن سائر النصوص في الوقت الذي تسكت فيه عن سقطات ونقائص هذه النصوص»: ينظر النص الإسلامي في قراءات الفكر العربي المعاصر، (م.س)، ص ص 63-69

ونعتقد أنه لا يمكن بحال تجاوز هذه الاختلالات الفهمية إلا بإدراك للمناهج والطرائق التي اعتمدتها تلك القراءات، كما أن هذا التجاوز لا يمكن تحقيقه بدون الرصد الدقيق للنتائج والآثار التي خلفتها هذه القراءات، وشرط ذلك كله، القيام **بقراءات وكشوف منهجية علمية**، في إطار عمل مؤسسي، طويل النفس، للتعاطي العلمي مع هذه الطروحات. ذلك أن مجرد القول بقيام هذه النظريات والرؤى على مقولات تناقض في ظاهرها إمكانية تطبيقها في قراءة النص القرآني _دون هذا العمل الرصدي والكشفي التتبعي العميق نظريا وتطبيقيا_ سيعمق من الإشكالية أكثر مما يسعى في حلها.

وبالتالي نطرح السؤال الآتي: هل يمكن لمجال معرفي ذو خصوصية كالقرآن الكريم أن تنسحب عليه كل مقولات ونظريات وآليات العلم الإنساني ذي الخصوصية المفارقة في المنطلقات والنتائج؟

سينقلنا الجواب إلى فلسفة العلوم التي تذهب إلى أن قيام علم ما يستوجب شرطين أساسيين: **الأول**: تحديد موضوعه. و**الثاني**: تحديد المنهج الملائم لذلك الموضوع.

من هذا المنطلق، هل يمكن الحديث عن منهج لقراءة القرآن المجيد ذي خصوصية منبثقة من طبيعة النص المتعالي والمفارق لطبيعة النصوص البشرية؟ أم أن لغوية النص تجعله خاضعا لمناهج قراءة النصوص عامة؟ هل ما تبلور من مناهج_قديما وحديثا_ في قراءة القرآن الكريم تم من داخل النص نفسه أم حملت إشكالات وإسقاطات أصحابها دونما إدراك لطبيعة الخصوصية التي يمتلكها نصه المقدس؟

_ منهجية التعامل مع القرآن الكريم:

إن هذه الإشكالات وغيرها، والتي يمكن قبول بعضها باعتبار حدود الثقافة السائدة، والأفق الفكري التي ظهرت فيها، وضرورة تجاوز بعضها الآخر لمحاصرته النص القرآني المطلق ومحاولة التحكم فيه بالأطر الفكرية أو المذهبية أو الطائفية المسبقة، أو التي تجعله في مرتبة النسبي المتجاوز، وباستحضار المستجدات الراهنة، والتي تتميز بـ "الإدراك المنهجي للأمور، والبحث عن علاقاتها الناظمة بطرق تحليلية ونقدية"[51] لَمِمّا يستوجب **تجديد منهج النظر في القرآن الكريم** بما يتيح له كامل القيومية والتوجيه والدور المهيمن في البناء للمعارف-خاصة الدائرة في فلك القرآن الكريم- بما يتيح السيادة الكاملة له.

كما أن هذه الإشكالات لا تنفي قيام مجموعة من الاجتهادات والرؤى الجادة التي حاولت أن تتعامل مع القرآن الكريم **بوعي معرفي ومنهجي** عميق يروم تجاوز الإشكالات التاريخية والاتجاه نحو القرآن الكريم ذاته،

[51]- العلواني (طه جابر)، **نحو منهجية معرفية قرآنية محاولات في بيان قواعد المنهج التوحيدي للمعرفة**، ط1، 2004م، دار الهادي، ص 282

لاكتشاف منهجه المؤسس لقراءته، والذي يضمن العودة الجادة إلى هذا الكتاب المجيد بوصفه المؤسس للحضارة.

إن أولى الخطوات-في نظرنا- في التجديد المنهجي المطلوب للتعامل مع النص القرآني تجديد الصلة به باعتباره **خطابا عالميا**[52] له كامل القدرة (بكرمه ومجده وهيمنته) على إنقاذ البشرية من منزلقاتها المعرفية؛ "فهو للناس كافة ويتسع لمطلق الزمان والمكان، جاء حاملا للصيرورة الكونية كلها ومعادلا بالوعي للوجود الكوني وحركته"[53]. وباعتباره "**مصدرا لمسلمات ما قبل المنهج** - الثقافة واللغة والتكوين المعرفي والنفسي للباحث - **كما أنه مصدر للمنهج والشرعة والفكر والمعرفة ومقومات الشهود الحضاري والعمراني**".[54]

وتتمثل الخطوة الثانية في **الجمع بين القراءتين**، التي تقوم على "الربط بين القرآن بوصفه محتوى الوعي المعادل للوجود الكوني وحركته، وما يتمظهر به هذا الوجود من تشيؤ وتكوين ودلالات؛ فكلاهما (القرآن والوجود المتشيئ) يكمل الآخر في الكشف عن دلالات الوجود وقوانينه، القرآن بمقولاته والطبيعة بحركتها... فالقراءتان تستمدان من مصدريهما، القرآن والكون؛ فالقرآن يعطي ما هو موجود في الكون، والكون يعطي ما هو موجود في القرآن **(وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ)**.[55 / 56]

هكذا، "فالله سبحانه وتعالى أنزل القرآن حاملا-في مبناه ومعناه-وحدة منهجية كاملة (ووعيا معادلا للكون)، وجعل عناصر استمراريته وحفظه ليست فقط في نصوصه، ولكن في (فهم هذه النصوص ضمن منهجيته)؛ أي ضمن المنهج القرآني ذاته. أما جهد الإنسان المطلوب، فإنما هو في (اكتشاف هذا المنهج) عبر تدبر عميق وتفاعل شامل مع القرآن الكريم، تماما كما يكتشف الإنسان المنهج العلمي في الحركة الكونية من خلال تتبع السنن والنواميس، وعبر التفاعل العميق بمختلف الظواهر الطبيعية وتحليلها في خصائصها وعلاقاتها، ليكتشف الناظم العام لجملة الظواهر صاعدا من التعدد والتنوع إلى الوحدة".[57]

---

[52]- الاجتهاد والتجديد في الفكر الإسلامي المعاصر، (م.س)، ص ص 375-384؛ وطه جابر العلواني، القرآن المجيد وخطابه العالمي(1)، ع11، 12، 2003م مجلة المسار، فيرجينيا؛ والقرآن المجيد وخطابه العالمي (2)، ع13، 2004م، مجلة المسار، فيرجينيا.

[53]- **إبستمولوجية المعرفة الكونية؛ إسلامية المعرفة والمنهج**، (م.س)، ص ص 210-211

[54]- **نحو منهجية معرفية قرآنية**، (م.س)، ص ص 281-282

[55]- الحجر، الآية 87

[56]- **منهجية القرآن المعرفية**، (م.س)، ص ص 177-178

[57]- **العالمية الإسلامية الثانية**، (م.س)،م1، ص 19

أبو القاسم حاج حمد وتجديد المنهج في التعامل مع القرآن الكريم:

كيف يمكن طرح القرآن الكريم على الحضارة العالمية الراهنة؟ وضمن أفقها؟ ليستطيع أن يقود المسلم أولا إلى خارج التخلف ثم يقود معه العالم إلى حيث البديل؟[58] أي كيف يمكن فهم القرآن الكريم فهما جديدا يتناسب والأفق المعرفي المعاصر، ليصبح قادرا على قيادة المسلمين ثم العالم كله إلى حيث البديل؟ سؤال شكل بؤرة الإشكالية التي ندب "محمد أبو القاسم حاج حمد" مشروعه للبحث فيها.

قادني هذا السؤال إلى طرح مجموعة من الأسئلة الفرعية: **ما المحددات المنهجية والمعرفية التي أطرت رؤية محمد أبو القاسم حاج حمد للتعامل مع القرآن الكريم؟ وإلى أي حد يمكن اعتبار مشروعه في تجديد منهج التعامل مع القرآن الكريم محاولة تجديدية أصيلة _بمعنى أنها محاولة تجديدية من الداخل وليست من الخارج_ قادرة على تجاوز الثغرات السابقة؟ وإلى أي حد أسعفه منهجه المقترح في بيان دور القرآن الكريم في إعادة صياغة جديدة لدورة حضارية جديدة؟**

نقول بداية أن **سؤال الكيف؟..** أو **سؤال المنهج** في التعامل مع النص القرآني سؤال شغل الحيز الأكبر من مشروع حاج حمد، باعتباره "مشكلة أمتنا الأولى. ولن يتم إقلاعنا العلمي ولا الحضاري إلا بعد الاهتداء في المنهج للتي هي أقوم، وبمقدار تفقهنا في المنهج ورشدنا فيه، يكون مستوى انطلاقنا كَماً وكيفا"،[59] بل يمكن اعتبار كل دراسات حاج حمد القرآنية «هي دراسات منهجية في الصميم؛ ففي سائر جوانبها تجد محاولة جادة متميزة لمعالجة مشكلات المنهج لا في العلوم الاجتماعية والإنسانية فحسب، بل لمعالجة قضية المنهج بذاته ومن حيث كونه منهجا، بل جاوزت ذلك لتقدم المنهج القرآني البديل عن سائر المناهج المعروفة، وهي في الوقت نفسه دراسات فلسفية في أبعادها ومراميها وطرائق تناولها لما تناولته».[60]

وفي سياق بحث العلاقة بين **المنهج والنص القرآني** – نعتقد أن حاج حمد – قد أعمل **المنهج** بالمستويين المفهوميين الآتيين:

- المنهج بمعنى منطق التفكير؛ وهنا يتم التركيز على القواعد المعتمدة في منطلقات البحث، وضوابطه التي ينبغي أن تحكم سيره وخطواته؛ أي الآليات والمداخل المعرفية والمنهجية التي اعتمدها حاج حمد للنظر في النص القرآني. وأعتقد أن تلك المداخل كانت على ضربين:

---

[58]- **العالمية الإسلامية الثانية**، (م.س)، م.1، ص 376

[59]- **مصطلحات النقد العربي لدى الشعراء الجاهليين والإسلاميين**، (م.س)، ص 32

[60]- **منهجية القرآن المعرفية**، (م.س)، ص 6

الأولى: محاولة استخراجها من داخل النص القرآني نفسه، انطلاقا من كون القرآن الكريم يحمل منهج قراءته بداخله.

والثانية: إعمال جملة من الآليات والأدوات المعرفية والمنهجية المستعارة من حقول معرفية مختلفة كالفلسفة وعلم الاجتماع واللسانيات والتاريخ وعلم الأديان المقارن وغيرها ومحاولة إعمالها بما يتناسب وخصوصية النص القرآني.

- المنهج بالمعنى الفلسفي "المعرفي"، بل اعتباره مضارعا للابستمولوجيا[61]؛ إذ «أن الضابط المنهجي يعني القانون الفلسفي أو المبادئ الفلسفية الناظمة بتحديد واضح للأفكار؛ فالمنهجية تقنين للفكر(...) فمنهجية الأفكار أو تقنينها بالمنهج تماثل حالة توليد القوانين من الطبيعة».[62]

فالمنهج بالمعنى الفلسفي يعتمد على «ارتباط التفاعل بين جدليات ثلاث، هي **جدلية الغيب وجدلية الإنسان وجدلية الطبيعية في إطار كوني واحد**، وذلك عبر أداة معرفية هي **(الجمع بين القراءتين)**، قراءة أولى بالله وبالوحي الإلهي بصفة الله خالقاً:

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الإنسان مِنْ عَلَقٍ (2))[63] وقراءة ثانية موضوعية بمعية الله وبالقلم **(اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الإنسان مَا لَمْ يَعْلَمْ (5))**[64] (العلق، الآيات 3-5) فالقراءة الأولى **كونية** تستمد من الوحي الغيبي عبر **القرآن**، والقراءة الثانية **موضوعية**، حيث يهيمن القرآن بالرؤية الكونية للقراءة الأولى على شروط الوعي الإنساني في الواقع الموضوعي، (ليستوعبها) في إطارها العلمي النقدي التحليلي (ويتجاوزها) باتجاه كوني مستمد من الوحي الإلهي القرآني. فالقراءتان ليستا متقابلتين، قراءة في القرآن تقابلها قراءة في الكون، وإنما هي **قراءة بالقرآن تهيمن على قراءة الكون المتحرك بشروطه الموضوعية**».[65]

إن المنهج بهذا المعنى «يعتبر- في حد ذاته- **إشكالاً منهجياً**، أي مدى إمكانية الأخذ بالقراءة الأولى التي تستمد من الوحي الإلهي، وهو غيبي، ليصبح منهجياً مقروءاً قابلاً لأدنى شروط المنهجية في الاستدلال العقلي وأعلاها في الاستقراء العلمي؟!

---

[61]- **مقاربات منهجية في فلسفة الدين**، (م.س)، ص 15
[62]- **منهجية القرآن المعرفية**، (م.س)، ص ص 33-34
[63]- العلق، الآيتان 1-2
[64]- العلق، الآيات 3-5
[65]- **ابستمولوجية المعرفة الكونية**، (م.س)، ص195

إن القراءة الأولى بالوحي القرآني تستوعب الحالتين، الاستدلال العقلي والاستقراء العلمي، ولكنها تتجاوزهما معاً بإطارها الكوني...أي ما يمتد في الزمان والمكان بأكبر من شروط الواقع الموضوعي».[66]

ويؤكد حاج حمد على أن «أصول هذا المنهج - **الإطار المرجعي المنهجي الكبير** - موجودة في القرآن الكريم، ويعتمد في الأخذ به على **الجملة الواعية** لدى الإنسان، وهي (السمع والبصر والفؤاد)... إذ أن الإنسان نفسه وعبر جملة الوعي هذه (**مطلق**) في حد ذاته مستجيب بحكم التركيب (**المطلق**) للكون الذي يوازيه، ومستمداً من الوحي القرآني (**مطلق الوعي**) الذي يعادل الوجود الكوني وحركته. فنحن أمام منطلقات ثلاثة، هي القرآن والإنسان والكون، وفوقهم إله أزلي».[67]

إن هذا المستوى المفهومي للمنهج يقوم على اعتباره:

«أ- قانونا فلسفيا ناظما.

ب- وهو منطق تقنيني للفكر.

ج- وهو جملة من القوانين المولدة للمفاهيم.

د- بل إنه تجاوز توليد المفاهيم نحو اكتشاف النسق المعياري لمحاكمتها.

هـ- يمثل المنهج إمكانية تؤهل الباحث تطبيق المفاهيم والقواعد والأنساق على الحقول المختلفة؛ وهذا يعني إمكانية قيام **منهج معرفي واحد**[68] لجميع أو لغالبية الحقول المعرفية والعلمية.

و- إن قوانين المنهج تمثل **الإطار المرجعي المعرفي**».[69]

بعد هذه النظرة الموجزة حول المستويات المفهومية لاشتغال المنهج في دراسات حاج حمد القرآنية، أود القول أن هناك علاقة جدلية تفاعلية بينهما؛ فالمنهج بما هو آليات وقواعد تقوم بعملها وفقا للتأطير المرجعي المنهجي الكبير، وكذلك المنهج الضابط الكلي فهو يقوم بعمل التقويم والتصويب للمناهج المختلفة حسب الحقول المعرفية.

---

[66]- نفسه، ص ص 195-196

[67]- نفسه، ص 196

[68]- وهذا المستوى المفهومي للمنهج هو ما أسماه د.سعيد شبار: المنهاج التجديدي القرآني التوحيدي للفكر والعلوم الإسلامية، ويعد من بواكيره الفكرية التي تستحق العناية والدراسة المؤسسية الطويلة النفس؛ وكذلك ما أطلق عليه د.طه جابر العلواني المنهج التوحيدي للمعرفة.

[69]- مقاربات منهجية في فلسفة الدين، (م.س)، ص 15

وعملي في هذا الورقة، سيقوم على الاشتغال على المنهج بالمستويين معا، وإن كان التركيز على الجانب الأول؛ أي **المفاتيح** أو **المداخل المنهجية والمعرفية** للتعامل مع النص القرآني. ونقصد بالمداخل المنهجية والمعرفية "وضع مقدمات معرفية وعلمية تساعد على فهم القرآن الكريم فهما يتناسب والأفق المعرفي وقابلة لإنتاج معرفة تجيب عن إشكالات وتساؤلات العصر وتحتفظ للقرآن الكريم بقدسيته ومرجعيته المطلقة"،[70] والتي تتمثل في:

أ- عالمية الخطاب القرآني:[71]

شاءت حكمة الله جل وعلا أن يبعث الأنبياء والرسل لأقوامهم فقط، بدءا بآدم ونوح وإبراهيم ومرورا بموسى وعيسى عليهم السلام، وهذا أمر واضح وجلي من خلال آيات القرآن وسوره. لكن بعثة محمد (ص) هي للناس كافة قال تعالى: "وما أرسلناك إلا رحمة للناس بشيرا ونذيرا"[72]. فخطاب القرآن الكريم لا يقتصر على أمة دون أخرى، وهو للعالم أجمع، فرسالته رسالة عالمية وكونية، قال تعالى: "هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون".[73] القرآن منهج يرقى على كل المناهج ونورا نافذا إلى كل التفاصيل وساطعا إلى كل الأرجاء...[74]

فالذين ينظرون إلى القرآن في بعد محلي أو جغرافي أو ما شابه ذلك، فإنهم يطعنون في مضمون القرآن وفي حقيقته، وكذلك في أبعاد البعثة المحمدية.

إن التعامل مع القرآن الكريم في بعده العالمي، والسير قدما نحو اكتشاف واستخراج المنهج الكوني الذي يستبطنه – القرآن – هدى ونور للناس كافة جدير بحل الكثير من إشكالات وقضايا الإنسانية جمعاء.

ب- منهجية القرآن المعرفية:

تشكلت مناهج المعرفة الحديثة مفصولة عن الدين، فحاولت العديد من المحاولات نفيه وإضفاء صبغة الخرافة عليه، ونقف عند الفيلسوف "أوغست كونت" (1857/1798)، حيث "توهم أن تطور العقل البشري بدأ باللاهوت ثم الميتافيزيقا ثم الوضعية. هذا التصديق يستند إلى نمطية التفكير وليس إلى – تطور- التفكير.

---

[70]- نزال (عمران سميح)، المدخل العلمي المعرفي لفهم القرآن الكريم نظرات في التجديد المنهجي، ط1، 1424هـ/ 2003م، دار القراء، ص 85

[71]- ظهرت في المرحلة المعاصرة كتابات ودراسات عديدة تذكر بعالمية الخطاب القرآني منها على سبيل المثال لا الحصر: -*الإسلام كبديل* د. مراد هوفمان- *وعود الإسلام* لروجي جارودي- *العالمية الإسلامية الثانية* لمحمد أبو القاسم حاج حمد -*الإسلام بين الشرق والغرب* لعلي عزت بيغوفيتش- العالمية والخصوصية في الفكر الإسلامي المعاصر لطه جابر العلواني. وغيرها من الدراسات التي تسير وفق هذا الاتجاه.

[72]- سورة سبأ: الآية27

[73]- سورة التوبة: الآية 33

[74]- أنظر: حاج حمد (أبو القاسم)، *العالمية الإسلامية الثانية* جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، ط1، 2004م، دار الهادي.

فتفكير "كونت" - ذرائعي وبمنهج ميتافيزيقي – بأكبر من أنه فلسفي وعلمي، لأنه انطلق من محاولة دحض التفكير - الأسطوري الخرافي – المرتبط بما حرف من موروث التوراة والإنجيل، فلم يميز بين النص الإلهي في - مطلقه – والتزييف التراثي البشري لهذه النصوص، فأدرجها ضمن الحقبة اللاهوتية. ومن هنا يرتكب كونت الأخطاء التالية:

أولا– أنه يحاكم نصوص الوحي بالمنطق الوضعي، فلا يميز بين الإنتاج البشري... وبين النص الإلهي.. .

ثانيا– أنه بحث في الموروث الديني من خلال الإرث الديني الإسرائيلي / اليهودي المفارق للحقائق التاريخية...

ثالثا– أنه لم يدرك - المرحلة البابلية الأولى – في تكوين الحضارة الإنسانية، والتي اجتمعت لديها قدرات – الإنس والملائكة والجن – وهي المرحلة التي انتهت بإقلاع - نوح – وفلكه المشحون، ومن تلك الحضارة البابلية تفرعت كل الحضارات التاريخية الكبرى من - عاد – و– ثمود – و-الفرعونية – وغيرها والتي لازالت أسرارها تحير العلماء".[75]

بعد هذا جاءت الفلسفة الماركسية كمنهج ينفي الغيب، ويقصي الدين من كل مجالات الحياة "فقادت التطور الأوروبي إلى بناء نظري متكامل للاهوت الأرض، نافية بحدة لاهوت السماء ومقاتلة مستقتلة ضد كل آثار الغيب في الحركة والوجود".[76] "فالحضارة الحديثة حضارة أرضية بشرية، ترى أنه لم ينزل من السماء شيء، وأن الإنسان وحده سيد الكون، وأن الحضارة هي الجديرة بالعناية، وأن الموت شيء مؤسف، لكن، ماذا نصنع له؟ فلنستعمل ما قبله فليس بعده ما يعنينا ! وربما بقيت ظلال الأديان الهزيلة التي يتوارثها البعض ! فما تجدي هذه الظلال؟ إنها تشبه أدخنة بعض المصانع التي تغير الجو ثم تبددها الريح".[77] و"الواقع الحقيقي أن الدين يعتبر في – عصر العلوم الطبيعية – صورة متواترة للتخلف العقلي وعجز الإنسان عن حل مشكلاته أو التغلب عليها، لقد أراد – "نيتشه" (*Nietzsche*)– أن يُعْدِم الإله، فباءت محاولته بالفشل وكان لزاما أن يفشل، أما علماء الطبيعة فقد تعمدوا قتل الإيمان به".[78]

[75]- إبستمولوجية المعرفة الكونية: إسلامية المعرفة والمنهج، (م.س)، ص ص 42-43
[76]- العالمية الإسلامية الثانية، (م. س)، ص 17
[77]- الغزالي (محمد)، المحاور الخمسة للقران الكريم، ط2، 2000م، دار القلم، ص 84
[78]- هوفمان (مراد)، الإسلام كبديل، ط1، 1993م، مجلة النور الكويتية، مؤسسة بڤاريا، ص 75

"صحيح توصل الغرب الآن إلى التفوق وإلى الهيمنة وإلى غزو الفضاء... ولكنه يصل الآن إلى طريق مسدود يفقد فيه الإنسان".[79] فكرامة الإنسان وتكريمه ينبنيان على الإيمان بالدار الآخرة، وبالوحي موجها مؤطرا لتصورات الإنسان نحو الخالق والكون والإنسان. ولهذا فالإبداع في المناهج والمعارف الحديثة كان إبداعا مفصولا عن الوحي في صلة وطيدة بالحس والتجربة فقط.

أما المسلمون، فلم يتأت لهم بعد أو لغيرهم تجديد المنهج في التعامل مع القرآن الكريم كخطاب عالمي له كامل القدرة (بكرمه ومجده وهيمنته) على إنقاذ البشرية من منزلقاتها المعرفية. "فهو للناس كافة ويتسع لمطلق الزمان والمكان، جاء حاملا للصيرورة الكونية كلها ومعادلا بالوعي للوجود الكوني وحركته"[80]. فكيف نستبصر المنهجية المعرفية التي يستبطنها القرآن الكريم في صلته بما قبله من الكتب وبالحركة الكونية؟

ـ المنهجية:

"إن من أنفس ما اهتدى إليه العقل البشري عبر قرون متتالية من الكدح والمكابدة، في المجال المعرفي هو مفهوم المنهج الذي هو عبارة عن آليات متضافرة للكشف عن الحقائق المعرفية المختلفة في مجالاتها المتعددة والمتنوعة... وقد أدى المنهج إلى بروز مفهوم أدق، وهو المنهجية، والتي هي عبارة عن إطار مرجعي لأفكار ينتظمها ناظم موحد. ولم يهتد العقل البشري إلى المنهجية، في المجال الكوني إلا بعد أن اكتشف الظواهر الكونية موحدة عضويا، انطلاقا من بنائية الكون ووحدته العضوية".[81] "إن الضابط المنهجي يعني القانون الفلسفي أو المبادئ الفلسفية الناظمة لتحديد واضح للأفكار، فالمنهجية تقنين للفكر ودون هذا التقنين يتحول الفكر إلى تأملات وخواطر انتقائية قد تكون عبقرية ومشرقة جدا وذات جدوى في كثير من الأحيان وتصلح للمواعظ والمجادلة الحسنة ولكنها لا تكون منهجية".[82]

ـ المعرفية:

"ليست- المعرفية- شكلا من أشكال التفكير المادي، وليست نتاج مذهب وضعي معين، إنها تعبير يستهدف الأخذ بالآفاق الواسعة لقدرات الثقافة العلمية المعاصرة وتوظيفها في إعادة اكتشاف وتحليل إشكاليات المجتمع والثقافة الإنسانية؛ فالمعرفية بميلها النقدي والعلمي هي خصم لمقولات – الأيديولوجيا – أو الفكر التاريخي

[79]- جارودي (روجي)، من أجل الحوار بين الحضارات، ط1، 1990، ترجمة ونشر زقان قرقوط، توزيع دار النفائس، ص 9
[80]- **ابستمولوجية العلوم الكونية** أبو القاسم حاج حمد، ص 210
[81]- عبادي (أحمد)، **مفهوم الترتيل في القرآن الكريم النظرية والمنهج**، ط1، 2007م، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، ص 51
[82]- **منهجية القران المعرفية**، (م.س)، ص 37

الساكن"[83] من خلال هذين التعريفين – للمنهجية – و– المعرفية – نفهم أن القرآن الكريم مصدر للمعرفة والفكر والمنهج، **فما هي مرتكزات منهجية القرآن المعرفية وخصائصها؟**

***- القرآن معرفة معادلة للوجود الكوني وحركته:**

ذكَّر الله تعالى في العديد من الآيات المبثوثة في الآفاق والأنفس بالنواميس والسنن التي ينبني عليها الكون، وجعله كتابا تُقْرَأُ فيه هذه الآيات؛ "فالقرآن يشبه الكون الكبير الذي نعيش فيه، بل إن اعتبار القرآن كونا معنويا يضارع الكون المادي الذي خلقه الله. قال تعالى: "فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم إنه لقران كريم في كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون تنزيل من رب العالمين".[84] إنه قسم بعظمة أحد الكونين على عظمة الآخر."[85] "فإن الكون كلّه يتجسد كرسالة مشفرة عظيمة، وكتاب تمت كتابته بتمامه بطريقة التشفير. إن العالم بكلمات أخرى كتاب كبير من الرموز: كتاب يتمكّن من قراءته فقط أولئك الذين يحبون مستوى الوجود.

إنّ هذا مطابق تماما للفكر القرآني من حيث إنه يجعل الأشياء في الحقيقة آيات الله، ولا يمكن إدراك طبيعتها الرمزية إلا من قبل أولئك الذين لديهم (عقل) ويستطيعون (التفكّر) بالمعنى الحقيقي للكلمة".[86]

ذلك أن "التنزيل الحكيم دقيق في تراكيبه ومعانيه، فالدقة فيه لا تقل عن مثيلتها في الكيمياء والفيزياء والطب والرياضيات. وهذا أمر طبيعي، فصانع هذا الكون من أصغر ذرة إلى أكبر مجرة، وخالق هذا الإنسان بأعصابه وأوردته وشرايينه وعظامه ولحمه وجلده وشعره وأجهزة السمع والبصر والإدراك، هو ذاته صاحب التنزيل، الذي لابد وأن تتجلى في دقته وحدة الصانع ووحدة الناموس. فلكل حرف فيه وظيفة، ولكل كلمة فيه مهمة... لذا فإن تطور مستوى الدقة عندنا أعلى بكثير من مستوى الدقة عند السلف، فالكون هو الكون، ولكن مستوى الدقة عندنا الآن في دراسة الكون أعلى بكثير مما كان عليه في القرن الماضي. واستعمال دقة العصر في العلوم والتشريع هو من أساسيات القراءة المعاصرة".[87]

إلا أن "القرآن أوسع من ذلك وأكبر بكثير، إذ يحتوي الكونَ كلَّه وليس المكانَ الأرضيَّ فقط، ويحتوي الزمان مع المكان أيضا، وما من آية تعرف هذا المحتوى الكوني للقرآن في بُعْدِه وامتداده الزماني أكثر من تلك الآية التي مَنَّ الله على خاتم النبيين الموقر قال تعالى: "وما خلقنا السماوات والأرض إلا بالحق وإن الساعة

---

[83]- نفسه، والصفحة.

[84]- سورة الواقعة: الآيات 75إلى81

[85]- الغزالي (محمد)، **كيف نتعامل مع القران**، ط 1، 1992م، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ڤيرجينيا، ص 84

[86]- إيزوتسو (توشيهيكو)، **الله و الإنسان في القرآن**، ط1، 2007، ترجمة محمد الجهاد، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ص 216

[87]- شحرور (محمد)، **تجفيف منابع الإرهاب**، ط1، دار الأهالي، دمشق، ص 27

لآتية فاصفح الصفح الجميل إن ربك هو الخلاق العليم، ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم[88]. فالخلق قد خلق بالحق، والحق مبثوث في الخلق وكيفيته والمعاني المتولدة عنه، فالله كما هو خالق فهو عليم، وحين تتم المقابلة بين الخلق والعلم على مستوى العطاء الإلهي للإنسان فتكون المنة الإلهية بقران عظيم يقابل بالوعي الخلق السباعي العظيم... فالسبع المثاني هي السماوات السبع وفي مقابلها السبع أرضين والقرآن هو المعادل بالوعي لهذا الخلق الكوني"[89]. فما أتاه الله لمحمد من الآيات أعظم بكثير مما أتاه للأنبياء والرسل من قبله، إذ أتاه القرآن العظيم يضم التذكير بالسنن الكونية، وبالحق المبثوث في الخلق كله، فجهاد محمد صلى الله عليه وسلم والذين ءامنوا به كان بالقرآن فقط قال تعالى: "فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادا كبيرا"[90]، ومهما ضرب الذين كفروا من الأمثال إلا والقرآن يأتي بالحق وأحسن تفسيرا قال تعالى: "ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا"[91]. فالجهاد يكون بالقرآن ومن أجل القرآن.

*** الحكمة من إعادة الترتيب الوقفي للكتاب:**

من المعلوم أن القرآن الكريم تمت إعادة ترتيب آياته، بدل الترتيب الذي نزلت به على قلب الرسول صلى الله عليه وسلم. فهذا الأمر وقف من عند الله وعلى يد رسول الله، فلو كان القرآن مرتبا وفق أسباب النزول لكان من الأولى أن يبتدئ الكتاب بأول ما نزل في غار حراء، وهي آيات مطلع سورة العلق، ولختم باليوم أكملت لكم دينكم، "وقد رد الله على أولئك الجاحدين – لهذا الأمر – بقوله "وإذ بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر، بل أكثرهم لا يعقلون. قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين امنوا وهدى وبشرى للمسلمين"[92]. ففي هذه الآية أكد الله على إعادة الترتيب أو التركيب ورد على حجج الجاحدين بعلمه هو – سبحانه – في مقابل جهلهم لحكمه... فبموجب هذا التركيب يتخذ القرآن وحدته العضوية،[93] كما يتخذ الكون وحدته البنائية.

*** بنائية القرآن وضبط دلالة اللغة:**

إن "النص القرآني هو وحدة موضوعية أو فكرية، تتضمن أجزاء متناسقة فيما بينها، حيث تصب هذه الأجزاء في تلك الوحدة"[94].

---

[88]- سورة الحِجْر: الآيات 87/85

[89]- **منهجية القران المعرفية**، (م. س)، ص 86

[90]- سورة الفرقان: الآية 56

[91]- سورة الفرقان: الآية 33

[92]- سورة النحل: الآيتين 102/101

[93]- نفسه، ص ص 94-96

[94]- البستاني(محمود)، **المنهج البنائي في التفسير**، تقديم عبد الجبار الرفاعي، ط1، 1422هـ/2001م دار الهادي، ص 10

وتبرز أهمية إدراك الوحدة الموضوعية والبنائية للنص في كونها تحقق "وحدة معرفية تلملم شتات الإنسان المعرفي، وتوحد بين زوايا إدراكه، وتكسبه جهاز تنسيق معرفي يمكن من انتظام الأصول المنهجية وطرق الاقتراب والتناول وفق نواظم توحيدية، مما أوجد نسقا إسلاميا متميزا في المعرفة، قوامه الوحدة والاتساق، وتيسير سبل التعاضد المنهاجي... وإطلاق قدرات الإنسان التفسيرية لبصائر الوحي، والتسخيرية لمفردات الكون".[95]

فـ"بحكم إعادة الترتيب حيث أخذ الكتاب وحدته العضوية، يفتح الطريق أمام القراءة المنهجية المعرفية، وهذه إحدى أهم معجزات القرآن، إذ النص واحد لا يتغير ولا يتبدل وتختلف قراءته تبعا للتركيب والفارق النوعي في تطور العقل البشري... فالقرآن في بنائيته الحرفية يماثل البنائية الكونية، حيث إذا انفلت نجم عن موقعه اختل النظام الكوني كلُّه ولهذا قابَلَ الله بين البنائية – مواقع – النجوم، فلم يقسم سبحانه بالنجم، ولكنه أقسم بمواقعه في سياق تعريفه بخصائص القرآن البنائية قال تعالى: "فلا أقسم بمواقع النجوم، وإنه لقسم لو تعلمون عظيم إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهَّرون تنزيل من رب العالمين"[96]... إذن **فالقرآن ممنهج بالاستخدام الإلهي لمفردات اللغة العربية على مستوى الاصطلاح الدقيق**.... ولهذا، يتطلب العلم القرآني **قاموسا – ألسنيا معرفيا**– يستند في تحديد دلالة ألفاظ القرآن المنهجية والمعرفية إلى نظرية – **العائد – المعرفي** أو المرجع الوسيط، فهناك ثلاثة أمور في عملية توصيل دلالات المفردة، فهناك الكلمة وهناك الأمر الذي تشير إليه وهناك التصور العقلي المشكل عن هذا الأمر في الذهن وذلك خلافا للتصور التقليدي لفقه اللغة والمعاني".[97] من هنا يتضح أن أبا القاسم حاج حمد يدعو لتدقيق الفهم حول مصطلح القرآن، لأنه "إذا تم ضبط مفاهيم القرآن الكريم، فقد تم تبعا لذلك ضبط مفاهيم الدين القيم، وأمكن تكوين الميزان الذي به تُقَوَّم عطاءات واجتهادات العصور".[98]

"فليست المفاهيم إلا اللبنات التي منها تؤسس المنهجية ومن ثم، فما من عمل منهاجي إلا ويكون قوامه عملية التأصيل للمفاهيم".[99] هذا فضلا عن ما يجده الباحث والدارس...للفظة القرآن "من روعة ما فيها من الجمال والفن، وصورة الإبداع التي تشع بها... وقوة الحركة فيها ومقدار ما تملكه من سيطرة على الوجدان

---

[95]- **مناهج الاستمداد من الوحي**، (م.س)، ص 6

[96]- سورة الواقعة: الآيات 75 إلى 80

[97]- **منهجية القرآن المعرفية**، (م.س)، ص ص 98-99

[98]- البوشيخي (الشاهد)، **"نحو منهج لدراسة مفاهيم الألفاظ القرآنية"**، محاضرة ألقيت في أشغال - ندوة القرآن المجيد وخطابه العالمي- أغادير – ماي 1997-26-21

[99]- أبو الفضل (منى)، **نحو منهاجية للتعامل مع مصادر التنظير الإسلامي بين المقدمات والمقومات**، ط1، 1996م المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، ص 8

والمخيلة... فمن خصائصها الدقة في وضعها واختيارها وفي الوصف والمعاني والتناسق".[100] فتتبع ألفاظ القرآن الكريم ومفرداته هو في الراجح تتبع لمواضيع تحويها هذه الألفاظ كل على حدة أو في الترابط فيما بينها.

ج- الهيمنة والتصديق:

ما المقصود بالهيمنة والتصديق؟ وما هي الآليات النقدية التي اعتمدها القرآن الكريم في مراجعة وتصحيح ما تم نقضه في الكتب السابقة؟ وما الإضافات النوعية التي امتاز بها القرآن الكريم على مستوى الموضوعات والقضايا التي عالجها مقارنة بالكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد؟ وما هي الاختلالات التي سجلها القرآن الكريم على تلك الكتب موضوعيا ومنهجيا؟ وهل يمكن أن يكون هذا المنهج المستبطن داخل القرآن المجيد آلية نقدية لما بعده من الفكر والإنتاج البشري اللاحق؟ وكيف؟ وكيف يمكن اعتماد هذا المحدد المنهاجي كآلية للتصحيح والمراجعة الدائمة وكميزان لقياس الأفكار؟ كيف يمكن التأسيس من خلال هذا المحدد لقاعدة مفاهيم تصلح لأن تكون مجالا لحوار الأديان والحضارات حول موضوعات مشتركة وبالتالي السير قدما نحو التأسيس لمشترك إنساني كوني تلتقي عليه كل الفعاليات والإرادات الفاضلة؟

"**التصديق** هو عملية تحقيق واسترجاع للثابت المشترك في رسالات الرسل بعد غربلته ونقده وتمييز صحيحه من باطله... وإعادة تقديمه بعد نقده وتحليله وتزكيته وإزالة الخصوصيات من خطاب الشعب المرسل إليه، وعرض الكليات المشتركة الخالية من أي تحريف وتغيير، و**الهيمنة** عليه لجعله صدقا محضا جاريا في ذات السياق الذي يجعل من رسالات المرسلين رسالة واحدة".[101]

نفهم إذن أن «القرآن الخاتم بِهَيْمَنَتِه على ما سبق من كتب صَدقَها؛ حيث يتولى بذات الوقت تصويب ما حُرف فيها بمنطق(نقدي استرجاعي) يكشف مواطن التزييف ومصادره التي قد تستخدم للطعن في خصائص الإسلام».[102]

فخاتميته تقتضي **الاسترجاع النقدي** لقضايا ومواضيع الكتب السابقة؛ أي ما اصطلح عليه القرآن الكريم بالتصديق والهيمنة؛ قال تعالى: **(وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ**

[100]- السلامي (عمر)، **الإعجاز الفني في القران**، 1980م، مؤسسة عبد الكريم بن عبد الله، تونس، ص 72
[101]- **الاجتهاد والتجديد في الفكر الإسلامي المعاصر**، (م.س)، ص 381
[102]- **إسلامية المعرفة: المفاهيم والقضايا الكونية**، (م.س)، ص 83

لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آَتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ).[103]

ولهذا، فإننا بحاجة إلى استخراج لهذا المنهج النقدي المستبطن داخل القرآن المجيد لعلم الهيمنة والتصديق في صلته بعلم الأديان المقارن وآلياته، وسيكون للنصوص المؤسسة في كل ديانة القاعدة الأساس في بناء وكشف التصورات والمفاهيم التي تحملها تلك النصوص. هذا مع الأخذ بعين الاعتبار كمدخل منهجي أساس ما اختص الله تعالى به القرآن الكريم من **صفات وخصائص المجد والكرم والهيمنة**؛ فبالكرم لا ينقطع عطاؤه وبالمجد لا يلحقه القدم وبالهيمنة يعيد القضايا إلى سياقها الحق، وفيه وبه يستبصر الناس الحق في كل زمان ومكان.

إن تأسيسا منهاجيا بهذا المستوى في تعاملنا مع القرآن المجيد لمما يجعلنا - بإذن الله - "نثبت لعالم اليوم أن القرآن المجيد المكنون الكريم قادر على مخاطبة عالم اليوم في أعلى درجات تقدمه، وفي مستوى سقفه المعرفي، وقادر على الأخذ بيد الإنسان المعاصر لإخراجه من أزماته، وتجاوز مشكلاته؛ وذلك إذا تمكن حملة القرآن المجيد من أن يكتشفوا خصائص القرآن، ويكشفوا عنها للعالم".[104]

كما يُمَكننا في ذات الوقت من ربط سبل التكامل والترابط والتواصل بين اجتهادات علماء ومفكري الأمة بشكل إيجابي، وتجنب كل ما من شأنه أن يحدث قطائع معرفية وذهنية وهمية أكثر منها واقعية. فالأصل هو أن يتفاعل كل جيل من الأمة مع الوحي- قرآنا وسنة- ويبذل وسعه في ذلك دون استبعاد تام لما أنتج في فترات تاريخية معينة، ودون أن يطغى هذا المنتج بكلياته وجزئياته...فمن خصائص القرآن المجيد العطاء والكرم المتجدد: **(إِنَّهُ لَقُرْآَنٌ كَرِيمٌ)**،105 **(قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا)**106.

---

[103]- المائدة، من الآية 48

[104]- العلواني(طه جابر)، **خصائص لسان القرآن الكريم**، ط1، 2008م، ضمن ندوة مناهج الاستمداد من الوحي، الرابطة المحمدية للعلماء، دار أبي رقراق، ص 27

[105]- الواقعة، الآية 77

[106]- الكهف، الآية 109

خلاصـــات:

أخلُص من خلال هذا الورقة لما أعتقده يشكل الخلفية الحضارية والمعرفية والمنهجية لإعادة طرح سؤال **المنهج في التعامل مع القرآن الكريم** في أفق بناء **المنهاج التوحيدي التكاملي للمعرفة والعلوم الإسلامية** إلى النتائج والخلاصات الآتية:

- أن أزمة الأمة الإسلامية هي أزمة حضارية فكرية جوهرها منهجي.

- أن جوهر الأزمة المنهجية يتمثل في الخلل الذي أصاب **العلاقة بالقرآن الكريم** استمداداً منه وتنزيلاً على الواقع المتجدد.

- الوعي بأن **الخروج من الأزمة** لن يكون إلا **بالعودة الصادقة إلى القرآن الكريم**، بوصف ذلك قاعدةً فكرية تشكل الأساس والمنطلق في بنيوية المشروع النهضوي الشامل بما يحقق جميع صور **التكامل** الحضاري للأمة الإسلامية وسائر الأمم الأخرى في العالم؛ إذ أن خلاص العالم لن يتأتى إلا عبر كتاب كوني مطلق يعادل الوجود الكوني وحركته، وليس هذا الكتاب سوى القرآن الكريم القمين بهذا الدور. لكنّ شرط هذه العودة هو **القراءة المنهجية المعرفية العلمية للقرآن المجيد.**

- عرفت **المرحلة المعاصرة**، طفرة نوعية في **العودة إلى القرآن الكريم**، إلا أن هذه العودة تمت **بمناهج وآليات** يستدعي الأمر الوقوف عندها ودراستها دراسة علمية ممنهجة تروم الاستفادة من جوانبها الإيجابية، وتستبعد كل ما من شأنه أن يخل بإطلاقية القرآن المجيد وربانيته.

- تتجلى أولى خطوات البناء المنهجي في التعامل مع القرآن الكريم في كونه **خطابا عالميا**، وباعتباره **مصدرا للمعرفة والفكر والمنهج.** وتتمثل الخطوة الثانية في **الجمع بين القراءتين** بوصفها المرتكز المعرفي التنزيلي للمنهاج التجديدي في قراءة القرآن الكريم. إضافة إلى محدداتٍ **كالوحدة البنائية والموضوعية للنص والهيمنة والتصديق**، باعتبارها مفاتيحَ منهاجية كبرى لتجديد النظر في القرآن المجيد. وتجدر الإشارة إلى أن هذا البناء المنهجي هو مستمد من المرجعية القرآنية ذاتها، ويتطلب وعيا معرفيا ومنهجيا باتجاه اكتشافه وإعماله نظريا وتطبيقيا، كما يعد القاعدة الأساس **للفلسفة القرآنية الكونية**؛ القائمة على **جدل الغيب والإنسان والطبيعة.**

- شكل **سؤال المنهج** بؤرة دراسات حاج حمد باعتباره مشكلة الإنسانية الأعمق، فكرس حياته وجهده في محاولة لاستنباطه من داخل القرآن الكريم في اتجاه بناء منهاج توحيدي منظومي تكاملي كوني قائم على الربط بين جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، وبأداة منهجية "الجمع بين القراءتين"، مما يتيح إمكانية تجاوز الإشكالات

المعرفية والمنهجية التي تراكمت عبر أبنية العلوم الإسلامية، وكذا تجاوز المآزق المعرفية التي سقطت فيها فلسفة العلوم الطبيعية والإنسانية، والإجابة وفق ما تتطلبه مقتضيات العصر الراهن، على مستجدات إشكالية بحاجة إلى تقديم الحلول من وجهة نظر إسلامية.

- يمكن اعتبار دراسات حاج حمد في التعامل مع القرآن الكريم أنموذجا حيا للتجديد المنهجي المطلوب في المرحلة المعاصرة؛ والتي حاولت الجمع بين بعدين أساسين:

البعد الإنساني: ويتضح ذلك من خلال تركيزه على محورية الإنسان في البناء المنهجي والمعرفي القرآني، من منطلق أن رسالة القرآن الكريم هي رسالة للإنسان أو حول الإنسان وقضاياه الوجودية المتعددة.

البعد المعرفي المنهجي الأصيل[107]: بحكم انطلاقه وصيرورته وانتهائه بالقرآن الكريم، رغم أخذه بالعديد من الآليات والأدوات المعرفية والنقدية والفلسفية الغربية، إلا أنه أعاد توظيفها وفق ما يخدم المنهج الذي انطلق من خلاله في بنائه المعرفي، وبما يستجيب للأطر المرجعية الإسلامية القرآنية.

- يعتمد حاج حمد في دراسته للقرآن الكريم على **التحليل** عوضا عن التفسير، و**التبين المنهجي** في إطار الوحدة البنائية القرآنية بطرح الجزء في إطار الكل، عوضا عن الفهم التجزيئي لآيات الكتاب وسوره.

- تتمثل المداخل المعرفية والمنهجية للنظر في النص القرآني-عند حاج حمد-في المداخل والمحددات الآتية:

عالمية الخطاب القرآني: «فالقرآن الكريم (عالمي) وموضوعاته (كونية) وإنسانه متفاعل بكل الأنساق الحضارية، ليرتقي بها، وبكل المناهج المعرفية، ليستوعبها ويتجاوزها ليسمو بها».[108]

منهجية القرآن المعرفية: وتتجلى «خصائصها في قدرات القرآن الكريم الكامنة على استيعاب الوجود الكوني وحركته عبر امتداد الزمان ومتغيرات المكان، انطلاقا من وحدة الكتاب العضوية والمنهجية بعد إعادة الترتيب وفقا، ومع التركيز على الدلالات المعرفية المميزة لألفاظ القرآن الكريم، مع الإشارة إلى موافقات المبادئ الكونية والكشف عن أرقى مظاهر التركيب الكوني».[109]

---

[107]- أقصد بالأصالة الانطلاق من القرآن الكريم وصحيح السنة النبوية الشريفة، مندمجا مع السقف المعرفي المعاصر ومتجاوزا له في اتجاه كوني إنساني؛ الأصالة فيما تعنيه أن أكون أصيلا بموضوع وبمنهج، ومناولة ذلك الموضوع بما يتيح الاستجابة لمتطلبات الواقع ومعالجة قضاياه وإشكالاته.

[108]- **العالمية الإسلامية الثانية**، دار ابن حزم، م.1، (م.س)، ص 79

[109]- **منهجية القرآن المعرفية**، (م.س)، ص 26

الوحدة البنائية والعضوية للقرآن الكريم: وفق ناظم منهجي مؤطر لوحدة الكتاب العضوية؛ إذ «... يستحيل الإقدام على هذا العمل المنهجي دون أخذ القرآن المجيد بقوة في وحدته البنائية العضوية وكليته، فلا يتم تحليل النص عضينا ومجزأً، وإنما يقرأ من خلال الكل القرآني (...) فالقرآن يطرح منهجه ضمن كليته العضوية، ووحدته البنائية(...)».[110]

الهيمنة والتصديق: القائم على «الاسترجاع القرآني للموروث الروحي للبشرية بمنطق (الهيمنة) النقدية والتحليل»[111]، لبناء المشترك الإنساني. والقرآن المجيد كما مهيمن على ما قبله من الكتب السماوية؛ فهو كذلك مهيمن على حاضره وعلى المستقبل أيضا.

- وتبرز أهمية الأخذ بهذه المداخل والمحددات المنهاجية في التعامل مع القرآن الكريم في النواحي الآتية:

1- رسم حدود للعلاقة بين المطلق والنسبي: بما يحفظ للقرآن الكريم قدسيته وربانيته وإطلاقيته وهيمنته، ويجعل البشري في حدود نسبيته وقابليته للتجديد والتقويم الدائم.

2- انفتاح القرآن الكريم على الكون والإنسان في إطار جدلية تكاملية، ودون استلابات لاهوتية أو وضعية.

3- فتح إمكانات للتواصل والتعارف الديني والحضاري، في أفق تأسيس مشترك إنساني تلتقي عنده كل دوائر العالم، دون تحيز أو تصادم.

4- السير قدما نحو المنهج والمنهجية، المنضبطة بقواعد سنن الله جل وعلا في الكون، وبمقاصد الحق من الخلق...

هكذا، فقد كشفت دراسات "أبي القاسم حاج حمد" وجوها جديدة للإعجاز القرآني، تتمثل في بيان «قدرة القرآن العظيم على بناء المنهج العلمي الكوني القادر على إعادة بناء الإنسانية من خلال المنهج والمعرفة والثقافة وإحداث التغيير في العالم كله، واحتواء سائر تناقضاته والقضاء على سلبياته، وتحويلها إلى عوامل تفاعل بناء، وتجاوز ثنائيات الصراع والتقابل إلى وحدة في تنوع وتوحد في تعدد».[112]

[110]- **العالمية الإسلامية الثانية**، دار ابن حزم، م.1، ص ص 81-82
[111]- **إبستمولوجية المعرفة الكونية**، (م.س)، ص 261
[112]- **منهجية القرآن المعرفية**، (م.س)، ص ص 9-10

MominounWithoutBorders

@ Mominoun_sm

Mominoun

الرباط – المملكة المغربية
ص.ب : 10569
هاتف: 00212537779954
فاكس: 00212537778827
info@mominoun.com
www.mominoun.com